



Research Article

الفصاحة النبوية بعد نزول الآيات القرآنية

Prophetic Eloquence After the Revelation of the Quranic verses

أ.د. عمر علي محمد الدليمي

كلية العلوم الإسلامية / جامعة الفلوجة / قسم اللغة العربية

المخلص

أجمع المسلمون قديماً وحديثاً على أن محمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفصحُ العربِ لسائناً، وأوضحُهُمُ بياناً، وأعدُّهُم نُطقاً، وأبينُهُم لهجةً، وأقومُهُم حُجَّةً، وقد بلغ من البلاغة والبيان أنه عَلِمَ ألسنةُ العرب، فكان يخاطب كلَّ قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، فيتقدمهم في بلاغتها، لكن من أين جاءت هذه الفصاحة التي ساد بها فصحاء العرب وأهله من قريش؟ وهل كانت فصاحته المتميزة قبل نزول القرآن أم بعده؟ قد اختلف العلماء في أصل فصاحته ومنشأها على أقسام: الأول: ينسبونها إلى أصله ونسبه من قريش؛ زاعمين أن قريشاً أفصح العرب؛ ولكونه منهم فهو أفصح العرب. والثاني: ينسبونها لنشأته في بني سعد؛ لأنهم أفصح العرب أيضاً، ومن نشأ بينهم تعود لسانه على الفصاحة العالية، فصار بنشأته بينهم أفصح العرب، والثالث: يرجعونها إلى أصله من قريش ونشأته في بني سعد، وبذلك جمع بين جزالة كلام البادية، ورونق كلام الحاضرة. والقسم الرابع: أشار إليه بعضهم على استحياي، مدَّعين أن فصاحته فضلاً عن نسبه ونشأته كانت بوحى إلهي من غير أن يبينوا أنها قبل أو بعد نزول القرآن، والقسم الخامس الذي لم يذكروه وقد بيَّنته وبرَّزته ورجَّحته: أن فصاحته العالية كانت بعد الإسلام بوحى وتأييد إلهي حصراً، لتوافق فصاحته فصاحة القرآن، أو تقاربها، وليميَّزه اللهُ على العرب أجمعين بلسانٍ عربيٍّ مبين، فاتاه اللهُ جوامعَ الكلم، واختَصَرَ له الكلامَ اختصاراً، وأعطاه القرآنَ ومثله معه؛ ليكونَ بفصاحته آيةً ومعجزةً يُخرسُ بها العرب الذين كانوا يتميزون بفضل اللسان والبيان والبلاغة وفنون القول من الشعر والخطابة وينقادون لأصحابها، ولم يكن قبل النبوة ونزول القرآن أفصح العرب ولا أفصح قريش، بل لم يكن يمتاز في فصاحته عن أقرانه بشيء، ولا سيَّما عن القرشيين الذين نشؤوا مثله في بني سعد، إذ كانت فصاحته العادية الطبيعية قبل نزول القرآن من دلائل نبوته ومن إعجاز القرآن، فكما لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يعرف الشعر، حتى لا يرتاب المبتلون، كان أيضاً لا يختلف عن أقرانه في فصاحته حتى لا يرتاب المبتلون، ويقولون إنَّه متميزٌ بفنون القول فجاء بنظم جديد ونسبه إلى الله، فكان من لوازم النبوة والتبليغ والتبيين وفهم القرآن الكريم أن يكون أفصح العرب، وأعرفهم بكلام الله المنزل بلغة العرب الأدبية الرسمية، ولا يصح أن يكون في العرب من هو أفصح أو أبلغ أو أفهم منه بلغة القرآن وبكلام العرب، ولولا النبوة لما كان أفصح العرب؛ لأنَّه قضى أربعين سنة قبلها، ولم يتميَّز عن أقرانه بفصاحة نادرة، ولا ساد قومه بفصاحته، فكيف يسود بهذه الفصاحة الطبيعية العرب جميعاً؟! وقد فصلنا القول في أقوال العلماء واختلافاتهم بالأدلة والحجج النقلية والعقلية، وتوصلنا إلى نتائج جديدة في بيان أسرار فصاحته وأسبابها، تعدُّ إضافاتٍ مهمةً في سيرته وفصاحته المتميزة.

الكلمات المفتاحية: فصاحة ، لغة النبي ، أفصح العرب ، قريش

 OPEN ACCESS
Corresponding Author: Omar Ali
AL Dulaimi; Email:
dr.omar.ali@uofallujah.edu.iq

Published 13 March 2023

Publishing services provided
by Knowledge E

© Prof. Dr. Omar Ali AL

Dulaimi. This article is
distributed under the terms of
the Creative CommonsAttribution License, which
permits unrestricted use and
redistribution provided that the
original author and source are
credited.Selection and Peer-review
under the responsibility of the
AICHS Conference Committee.

Prof. Dr. Omar Ali AL Dulaimi

Arabic Language Department/ Faculty of Islamic Sciences, Fallujah

Abstract

Ancient and modern Muslims unanimously agree that Prophet Muhammad, peace be upon him, was the most eloquent of the Arabs. The clearest in articulation, the most virtuous in speech, the most rhetorical in dialect, and the most upright in debate to the extent that he knew all Arabs' dialects as he spoke to each tribe by its dialects. But the question is, from where did he acquire all this eloquence? And was his unique eloquence before or after the Qur'an revelation?

Scholars have contradicted the origin of his eloquence and its basis in divisions. First, they attributed it to his origin and lineage from Quraish claiming that Quraish is the most eloquent of the Arabs. Second, they attributed it to his growing up in Bani Sa'd as they are the most eloquent Arabs as well. Third, they linked it to his origins from Quraish and growing up in Bani Sa'd, and thus Prophet Mohammed. Therefore, he combined the abundance of the words of the desert and the splendor of the present speech. Fourth, some of them timidly claimed that his eloquence, lineage, and growing up were divinely inspired without explaining that it was before or after the revelation of the Qur'an. In the fifth division, which they did not mention, and which I have clarified, highlighted, and preferred: His high eloquence was exclusively after Islam with divine inspiration and support, to match his eloquence with the eloquence of the Qur'an, or close to it. In this regard, Allah distinguished him from all the Arabs by having a clear Arabic tongue, so he gave him the gist of the words, shortened the speech for him, and gave him the Qur'an and the same of it with him. Thus, his eloquence would be a sign and a miracle that would silence the Arabs, who were distinguished by the virtue of language, eloquence, and the art of speech, such as poetry and rhetoric, and they were submissive to their owners. Before the prophethood and the revelation of the Qur'an, he was neither the most eloquent of the Arabs nor the most eloquent of the Quraish. Rather, he was not distinguished in his eloquence from his peers, especially from the Quraishites who grew up like him in the Bani Sa'd, but his normal, natural eloquence before the revelation of the Qur'an was the evidence of his prophethood and the inimitability of the Qur'an. As he was unable to read or write and did not know poetry so that disbelievers would not be suspicious, he was also not different from his peers in his eloquence so that the disbelievers would not be suspicious, and then they claim that he was distinguished in the arts of speech,

so he brought a new system and attributed it to Allah. One of the prerequisites for prophecy, communication, explanation, and understanding of the Noble Qur'an was that he be the most eloquent of the Arabs, and the most knowledgeable of them with God's revealed words in the official literary language of the Arabs. Also, it is not correct for the Arabs to be more eloquent or more understanding than him in the language of the Qur'an and in the words of the Arabs. Without the prophecy, he would not have been the most eloquent of Arabs; because he spent forty years before that he was not distinguished from his peers by his rare eloquence, nor has his people prevailed in his eloquence, so how can he prevail with this natural eloquence of all Arabs? In addition to explaining the secrets of his eloquence and its causes, we have reached new conclusions in explaining the sayings of the scholars and their differences with evidence, rationale, and transmission arguments, which are significant additions to his biography and distinguished eloquence.

Keywords: Prophetic, eloquence, eloquent of the Arabs, Quraish

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفصح العرب والمتكلمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

اتفق المسلمون قديماً وحديثاً على أنَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب، وأفصح مَنْ نطق بالضاد، تتنأل المعاني الرفيعة من فمه الكريم انثيال السيل، لا يدانيه في ذلك قائل، ولا يباريه خطيب، وهو هكذا في كلِّ حالاته، سواء أقال كلاماً مرسلاً، أم اعتلى منبراً للخطابة، أم حاور محدثيه، بل بلغ من البلاغة والبيان أنه عَلِمَ ألسنة العرب، فكان يخاطب كلَّ أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في بلاغتها، وكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضلاً عن علو فصاحة كلامه، وحسن اختيار ألفاظه، وروعة نظم بيانه، متميزاً بحسن الإلقاء والحديث وإعطاء الحروف أصواتها وألفاظها بطريقة أداء تسحر الأسماع والقلوب؛ وقد أشارت أم معبد الخزاعية رضي الله عنها إلى ذلك وأجادت في وصف فصاحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يعجز عنه البلغاء والفصحاء بقولها: ((وفي صوتِهِ صَهْلٌ، إن صمتَ فعليه الوقار، وإن تكلمَ سماه وعلاه البهاء، أجمَلُ النَّاسِ وأبهأه من بعيدٍ، وأحسُّه وأجمَلُه من قريبٍ، خُلُو المنطق فصلاً، لا نزر ولا هنز، كأنَّ منطِقَهُ خرزاتٍ نظمٍ، يَنحدرنَ ربعةً)1(،) ومثله ما روي عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، قال: (سألت خالي هند بن أبي هالة، وكان وصافاً، فقلت: صف لي منطق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُتواصلَ الأحران دائمَ الفكرة لَيْسَتْ لَهُ راحةٌ، طويلَ السكوتِ، لا يتكلم في غير حاجةٍ، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصلٌ، لا فضول ولا تفصيل)2(،) ويكفي من ذلك كله قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُعطيْتُ جوامعَ الكلم)3(،) ومعناه: إيجاز الكلام في إشباع المعاني، يقول الكلمة القليلة الحروف، فتتنظم الكثير من المعنى، وتتضمن أنواعاً من الأحكام، أي: إيجاز اللفظ مع تناوله المعاني الكثيرة جداً بخواتمه، أي: كان يختم على المعاني الكثيرة التي تضمنها اللفظ اليسير، فلا يخرج منها شيء عن طالبه ومستنبطه لعذوبة لفظه وجزالتها4(،) فكان من

أهم ميزات فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ التي ساد بسببها فصحاء العرب: إيجاز ألفاظه، وإبتاؤه جوامع الكلم فصلاً لا فضول ولا تقصير فيه، ومعرفة لغات العرب وألسنتهم، فضلاً عن حسن أدائه، وإعطاء مخارج الحروف وأصواتها حقها، مع صوت حسن واضح، وحلاوة منطق لا يشوبه عيب ولا خلل، وتنزهه عن الصنعة والتكلف، مع الإيجاز والاختصار بكلمات بيّنة يحفظها من جلس إليه، كما لم يكن كلامه فاحشاً، ولا متفحشاً، ولا صحاباً، مع اتصافه بسكوته الطويل، حتى لا يتكلم في شيء غير حاجة، ولا فيما لا يعنيه، وإذا تكلم افتتح الكلام واختتمه بأشداقه، وأحياناً يكرره ثلاثاً حتى يفهمه السامع ويعيه. فاجتمعت هذه الصفات وغيرها في لسان النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، وأعطته بمجموعها هذا التميز والتصدّر على السنة العرب وفصحاءهم، وهو ما لم يجتمع لعربي غيره.

لكن السؤال الذي يسعى بحثنا للإجابة عنه، من أين جاءت هذه الفصاحة التي ساد بها فصحاء العرب وأهله من قريش؟ هل كانت وراثية ورثها من قومه القرشيين، أم كانت اكتساباً اكتسبها بسبب رضاعته ونشأته في بادية بني سعد بأرض هوازن، أم بسببها معاً؟ ولماذا لا يوجد في العرب، ولا سيما في قريش من يوازيه في فصاحته مع أن كثيراً من قريش اجتمع فيهم النسب القرشي والنشأة في بني سعد؟ ولماذا تميّز عنهم رسول الله _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، فساد بلسانه عليهم؟ ثم هل كانت فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ قبل النبوة وقبل نزول القرآن الكريم أم بعده؟ وهل يصح أن تكون هذه الفصاحة النادرة التي لا تجتمع لإنسان إنما كانت بوحى وإلهام إلهي بعد نزول آيات القرآن الكريم، ولا سيما أنه لا يوجد دليل واحد على تميزه بالفصاحة على أقرانه قبل النبوة؛ لتكون فصاحته موائمة لفصاحة القرآن الكريم، وليكون أعلم الناس بكلام الله، حتى يستطيع أن يُبلِّغ الرسالة وفقاً لمراد الله، فلا يصح أن يكون في العرب أو الناس أجمعين من يعرف كلام الله أو يفسر معانيه أفضل منه، ولا سيما أن الله ميّزه على العرب أجمعين بلسان عربي مبين، فأتاه جوامع الكلم، واختصر له الكلام اختصاراً، وأعطاه القرآن الكريم ومثله معه؛ ليكون آية ومعجزة يخرس بها العرب وفصحاءهم الذين كانوا يتمايزون بفصاحة اللسان والبيان والبلاغة وفنون القول؟!!

وهل يصح أن تكون فصاحته العالية المتميزة بسبب اجتماع أسباب الفصاحة الثلاثة فيه، وهي: أصله من قريش، ونشأته في بني سعد، ووحى من الله عز وجل بعد نزول القرآن الكريم، ولا سيما أن كل سبب من هذه الأسباب كفيلاً بأن يكون صاحبه من أفصح الناس، فكيف إذا اجتمعت كلها في رجل واحد؟ وقد اجتمعت فيه وحده من أسباب الفصاحة ما لم يجتمع لعربي آخر؛ لذلك برز أقرانه والعرب أجمعين!

إذا اتفق العلماء جميعاً على سيادة فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ التي يضيق ببيانها بحثنا المقتضب، فقد اختلفوا اختلافاً كبيراً في سبب هذه الفصاحة، كل هذه الأسئلة والتساؤلات والإشكالات تحتاج إلى إجابات وتفصيلات شافية؛ وهذا ما سنبحثه في المباحث الثلاثة الآتية:

- المبحث الأول: تعريف الفصاحة لغةً واصطلاحاً.
- المبحث الثاني: سبب فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_.
- المبحث الثالث: فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ بإلهام ووحى إلهي، وليس بسبب النسب والنشأة.

وقد تناولت في كل مبحث كل ما يندرج تحت مسماه، وبينت آراء العلماء واختلافاتهم بالأدلة والحجج النقلية والعقلية وصولاً إلى الرأي الراجح، ثم ختمت البحث بنتائج مهمة تعدّ إضافات جديدة في جانب من صفات وشمائل النبي محمد _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_.

فإن أصبت فبتوفيق الله وفضله وميّه وفتح، وإن أخطأت فمن نفسي القاصرة العاجزة، وحسبي أنني اجتهدت وسعيت، راجياً أن يرحمني الله ببركة من دار البحث في بحر جوده، وأنوار بركاته، وإعجاز فصاحته، وأن يشملني بلطفه ويتوقني على محبته وشهادته، ويحشرني في زمرة وصفوته، إنه على كل شيء قدير وبالإجابة سميع، وآخر دعوانا أن الحمد لله

ربِّ العالمين، والصلاة والسلام على سيد العالمين والمرسلين، وإمام البلغاء والفصحاء والمتكلمين سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوتهم إلى يوم الدين.

المبحث الأول: تعريف الفصاحة لغةً واصطلاحاً:

أولاً: تعريف الفصاحة لغةً:

الفصاحة: هي الإبانة والظهور، يقال: أفصح الصبيح، إذا بدا ضوءه. وكلُّ واضحٍ مُفصِّحٌ. ورجلٌ فصيحٌ وكلامٌ فصيحٌ، أي: بليغٌ. ولسانٌ فصيحٌ، أي: طلقٌ. ويقال: كلُّ ناطقٍ فصيحٌ، وما لا ينطقُ فهو أعجمٌ. وفصحُ الأعجمِ، تكلمٌ بالعربيةِ وفهمٌ عنه. وأفصح، تكلمٌ بالفصاحة. وفصحُ الرجلِ وتفصُّحٌ: إذا كانَ عَرَبِيَّ اللِّسانِ فازدادَ فصاحته. وأصل هذه المادة يدلُّ على خُلوصٍ في شيءٍ، ونقاء من الشُّوب (5).

ثانياً: تعريف الفصاحة اصطلاحاً: قد اختلف العلماء في معنى الفصاحة: فمنهم من قال: إنَّها راجعة إلى الألفاظ دون المعاني، ومنهم من قال: إنَّها لا تُخصُّ الألفاظ وحدها، والراجح من أقوال أهل اللغة والبيان أنَّ الفصيح هو اللَّفظ الحَسَنُ، المألوف في الاستعمال، بشرط أن يكون معناه المفهوم منه صحيحاً حسناً، إذ عرَّف الباقلائي الفصاحة بقوله: (الاعتدال على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس على عبارات جلية ومعاني نقية بهية) (6)، فالكلام الفصيح عند الباقلائي ما اشتمل على معنيين: (ما كان جزل اللفظ، حسن المعنى) (7)، لذا يعلَّل الخطابي إعجاز القرآن بسبب فصاحة ألفاظه ونظمه، بقوله: (إنَّما صار معجزاً؛ لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني) (8).

فيرى كثير من العلماء المتقدمين أنَّ الفصاحة في المفرد: هي خُلوصه من تنافر الحروف والغرابية ومخالفة القياس، وفي الكلام: خُلوصه من ضعف التأليف، وتنافر الكلمات مع فصاحتها، وفي المتكلم: ملكةٌ يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح، فتكون الفصاحة في الألفاظ والنظم وقواعد النحو وطريقة الأداء والصوت (9).

المبحث الثاني: سبب فصاحته _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _:

لم أجد فيما اطَّلعت عليه أن أحداً من العلماء قديماً وحديثاً يشكُّ أنَّ النَّبِيَّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ أفصح العرب، ففصاحته متفقٌ عليها بالإجماع، لكن اختلفوا في أصل هذه الفصاحة العالية ومنشئها، فكان اختلافهم ينحصر في الأقسام الخمسة الآتية:

— **القسم الأول:** ينسبون فصاحته المتميزة إلى أصله ونسبه من قريش؛ زاعمين أنَّ قريشاً أفصح العرب؛ لذلك فكُلُّ فردٍ منهم هو أفصح العرب.

— **القسم الثاني:** ينسبون لها منشأته في بني سعد من قبيلة هوازن؛ لأنَّهم أفصح العرب، ومن نشأ بينهم في باديتهم تعود لسانه على الفصاحة العالية، وقد استرضعوا رسول الله _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ ونشأ فيهم، حتى أصبح عمره خمس أو ست سنوات، ثمَّ أُرْجِعُوهُ لِأُمِّهِ (10)، ونستدلُّ من حديثها في سبب اختيارها له أنَّ الكثيرين من أهل مكة استرضعوا في قومها، وإذا كانت هذه العادة تتكرر في كلِّ عام أو على مدار العام مع توافر المرضعات، فمعنى ذلك سيكون عدد المسترضعين من أبناء قريش في بني سعد مثل النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ بالعشرات إن لم نقل بالمئات، وما ينطبق على النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ ينطبق عليهم.

— **القسم الثالث:** يرون أنَّ فصاحته بسبب أصله من قريش ونشأته في بني سعد، فاجتمع له ممَّا لم يجتمع لغيره إلا نادراً.

— **القسم الرابع:** ينسبون لها إلى أصله ونشأته ثم ازدادت بتأييد إلهي.

— **القسم الخامس:** إنَّ فصاحته كانت قبل النبوة عادية لا تختلف عن أقرانه القرشيين، لكن بعد النبوة ونزول القرآن الكريم وهبه الله فصاحة نادرة بوحى وتأييد إلهي حصراً.

قد فصل العلماء في الأقسام الثلاثة الأولى وأطالوا فيها، وكان جُلُّ اختلافهم ينحصر فيها، وأشار بعضهم على استحباب إلى القسم الرابع، مدّعين أنّ فصاحته فضلاً عن نسبه ونشأته كانت بوحى إلهي، لكن لم يُبرِّزوا هذا القسم، وأهمله غالبية العلماء؛ لذلك سأتناول بالتفصيل في هذا المبحث الأقسام الأربعة من غير أن أعنون لكل قسم بعنوان خاص؛ لتداخل الأقسام وتشابه الأدلة والرود عليها، وأمّا القسم الخامس فلم أجد أحدًا يذكره ويقتصر عليه، بل إنَّ من يذكر أنّ فصاحته بسبب الوحي فإنّه يخلطه بغيره، من غير أن يُبيّن أنّ هذا التأييد كان بعد نزول القرآن وليس قبله؛ لذا كان هذا الخلط سبباً في تدوير سبب الوحي وإهماله وضياعه، وكان إنكاراً غير مقصود لفضل الله على نبيه الذي ارتقى بلسانه العادي المماتل لألسنة أقرانه وبنى قومه إلى لسان يوازي فصاحة القرآن الكريم بعدما أنزله عليه ومثله معه، حتى يكون آية في الفصاحة تُعجز فصحاء العرب، كما أعجزتهم آيات القرآن الكريم؛ لذلك أفردت للقسم الخامس الذي أهمله العلماء مبحثاً خاصاً؛ لأهميته، ولأنّه ما ترجح لديّ، وهو خلاصة بحثي الذي أسعى فيه إلى إثباته وإبرازه وبيانه؛ لعلّ الله أن يشرفني بإضافة لبنة مهمة في بنيان سيرته العظيمة، لتسدّ الفجوة في قلعة فصاحته، وتزيل الغموض عن الطفرة الكبيرة والنقلة النوعية في فصاحته _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ بعد نزول القرآن الكريم عمّا كان عليه قبل نزوله، فلا يقبل العقل أن يتحوّل فجأة لسان رجل في الأربعين من عمره من فصاحة عادية لا تختلف عن فصاحة أقرانه إلى فصاحة تأخذ بمجامع القلوب وتسحر الأبواب، وتعجز فصحاء العرب جميعاً إلا إذا كانت بمعجزة ربّانية، واللافت للنظر أنّي لم أجد فيما قرأت أحدًا يسلط الضوء على هذا الجانب المهم من سيرته المباركة، أو يذكر أنّه _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ لم يكن أفصح العرب، ولا أفصح قريش قبل نزول القرآن الكريم، وكان في فصاحته قبل نزول القرآن الكريم لا يختلف عن أقرانه، ولا يمتاز عنهم بشيء إلا بما يمتاز به القرشي الذي نشأ في بني سعد على القرشي الذي لم ينشأ بينهم، وهم كثيرون، وفصاحته _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ العادية الطبيعية قبل نزول القرآن الكريم دليل على نبوته وتأييد لها، فكما أنّه لم يكن يقرأ ولا يكتب ولا يعرف الشعر، حتى لا يرتاب المبطلون، كان لا يختلف عن أقرانه في فصاحته ولسانه حتى لا يرتاب المبطلون في القرآن الكريم أيضاً، فمجوّه بكلام أعجز القراء والكتّاب والشعراء والفصحاء على الرغم من عدم معرفته القراءة والكتابة والشعر، وعلى الرغم من عدم تميّزه في الفصاحة قبل نزول القرآن الكريم، لهو دليل قاطع على أنّ ما جاء به من قرآن ليس منه، وإنّما من الخالق _عزّ وجلّ_. ومن خلال مناقشة آراء (الأقسام الأربعة الأولى) وأدلتهم بمجموعها في هذا المبحث؛ لتداخلها واختلاطها وتشابهها تجنّباً للتكرار، ومن خلال الرّدّ عليها جميعها سيظهر ما رجحته واضحاً بيّناً، لا لبس فيه في القسم الخامس الذي أفردت له مبحثاً خاصاً في المبحث الثالث.

إنّ الذين يرون أنّ فصاحته _عليه الصلاة والسلام_ المتميزة بسبب أصله ونسبه من قريش هم غالبية علماء اللغة من القدماء والمحدثين؛ لأنّ قريشاً في ظلّهم كانت أفصح العرب؛ لأنّها محطّ قبائل العرب بما أودعه الله تعالى من قدسية بيته فيهم؛ ليكون قبلة للعرب قبل الإسلام وما بعده، فكانت قريش تختار من لغات العرب ولهجاتهم أفصحها وأبلغها، واستطاعت أن تُشكّل اللغة العربية الأدبية الفصحى المختارة، ومنها أخذتها العرب، فترفع شعراؤهم وخطباؤهم وملوكهم عن لهجاتهم الخاصة وتمسكوا بها؛ لتكون بمثابة اللغة الرسمية لهم جميعاً (11)، روى الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أنّه: (سأل معاوية يوماً: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخالخانية الفرات) (12)، وتيامنوا عن كشكشة تميم (13)، وتياسروا عن كسكسة بكر (14)، ليست لهم غمغمة قضاة (15)، ولا طمطمانيّة حمير (16)، قال: من هم؟ قال: قريش (17). وقد أوجز هذا الرأي أحمد بن فارس بقوله: (أجمع علماؤنا بكلام العرب، والرواة لأشعارهم، والعلماء بلغاتهم وأيامهم ومحالّهم أنّ قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاها لغة... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخيروا من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم، وأصفي كلامهم، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى نحائزهم وسلانقهم (18) التي طبعوا عليها، فصاروا بذلك أفصح العرب، ألا ترى أنّك لا تجد في كلامهم عنعنة تميم (19)، ولا عجزية قيس (20)، ولا كشكشة أسد (21)، ولا كسكسة ربيعة (22)، ولا الكسر الذي نسمعه من أسد وقيس، مثل

تعلّمون وتعلم، شعير ويعير(23)؛ لذلك جعل أصحاب هذا الرأي علو فصاحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بسبب انتسابه لقبيلة قريش، واستشهدوا على صحة رأيهم بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أنا أفصح العرب بيد أبي من قريش، وإبي نشأت في بني سعد)) (24)، أو ((أنا أفصح من نطق بالضاد بيد أبي من قريش)) (25)؛ فيجعلون فصاحته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي ساد بها فصحاء العرب بسبب أنه من قريش؛ لأن قريشاً أفصح العرب، ومن كان منهم كان أفصح العرب من غير منافس. وهذا كلام باطل من وجوه كثيرة، ليس هنا محل الرد عليها(26)، ولكن نرد على ما يتعلق منها بفصاحته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنقول: إن الحديثين من الأحاديث الغربية الضعيفة، أو التي لا أصل لها، والتي لا يجوز الاستشهاد بها، أو بناء حكم عليها، على الرغم من أن معنييهما صحيحان، فكان صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب، وأفصح من نطق بالضاد إلى قيام الساعة؛ لأنه أعطي جوامع الكلم بالهام ووحى إلهي(27)، ولكن الحديثين بهذين النصين لا أصل لهما، ولو افترضنا صحتهما، فلا يفهم منه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صار أفصح العرب؛ لأنه من قريش فحسب، بل يفهم منه أن الفصاحة كانت في بني سعد خير مما كانت عليه في قريش؛ لذلك استأنف الكلام بعد استثنائه بقوله: ((وإبي نشأت في بني سعد))، (إن) المكسورة تدل على ابتداء الكلام واستنفاه وعدم عطفه على (بيد أبي من قريش)، بل بدأ بكلام جديد يثبت فيه أن فصاحته بسبب نشأته في بني سعد، وعلى ذلك يصح العطف على الفخر الذي ابتدأ به بقوله: ((أنا أفصح العرب... وإبي نشأت في بني سعد))، فهو عليه الصلاة والسلام يفتخر بأنه أفصح العرب، وأنه نشأ في بني سعد، فهذا مدار الفخر في الفصاحة عنده، فالنشأة التي أعطته هذه الفصاحة تستحق أن يفتخر بها، فكان أفصح العرب بسببها رغم أنه من قريش التي لا تمتاز على العرب بفصاحتها بسبب نشأة أبنائها في مدينة تجارية ودينية ينفذ إليها العرب وغير العرب، وتختلط ألسنتهم بغيرهم مما يؤثر في فصاحة ألسنتهم، لذلك نجد أن اللغويين حين أخذوا يجمعون مادتهم اللغوية رحلوا إلى قبائل نجدية منحازين عن قريش في أثناء القرن الثاني، قرن جمع اللغة وتدوينها؛ لأن قريشاً دخلها شوائب من الأعاجم والموالي الذين ينفذون إليها للتجارة أو للعبادة، وهو ما اشتهرت به قبل الإسلام، ومن أجل ذلك رحل اللغويون إلى قبائل نجد التي كانت ماتزال تحتفظ بصفاء لغتها في بوادي العرب بعيداً عن المدن وحواضرها، وقد شاع أن أفصح العرب لعصرهم ومنهم أخذت اللغة، وعليهم اعتمدوا في تقعيد قواعد النحو، هم هوازن وسفلى تميم وأسد وكنانة وهذيل وقيس(28)، ويوضح أبو نصر الفارابي السبب في أنهم اقتصرنا على تلك القبائل في جمع اللغة، فيقول: (والذين عنهم نقلت العربية وبهم أفتدي، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم قيس وتميم وأسد، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم أكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل القبط، ولا من قضاة وغسان وإباد لمجاورتهم أهل الشام، وأكثرهم نصارى يقرؤون بالعبرانية، ولا من تغلب فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم للنبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد وغانم؛ لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز؛ لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم(29)).

لذلك نجد فحول اللغة وعلماءها الكبار لا يأخذون اللغة من قريش، ولهم رأي آخر في أفصح قبائل العرب، قال شيخ الخليل بن أحمد الفراهيدي وشيخ اللغة والقراءات في زمنه أبو عمرو بن العلاء: (أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم)، يعني: بني دارم(30)، وقال أيضاً: (أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس) (31)، وعليها هوازن: هي خمس قبائل أو أربع، منها سعد بن بكر، وجشم بن بكر، ونصر بن معاوية، وثقيف، وقال أبو عبيد: وأحسب أفصح هؤلاء بني سعد بن بكر(32).

وذكر الجاحظ أن بني أسد من أفصح العرب وليس فيهم إلا خطيب، أو شاعر، أو قائف، أو زاجر، أو كاهن، أو فارس، ثم بين أن عمر بن عبد العزيز القرشي رضي الله عنه تعجب من فصاحتهم، حتى قال فيهم: (ما كلمني رجلاً من بني أسد إلا تمنيت أن يمدَّ له في حجته حتى يكثر كلامه فأسمعه)(33)، وقال فيهم الخليل الفراهيدي: (أفصح العرب نصر فُعَيْنٍ أو فُعَيْنٍ نصر، وهم من بني أسد)(34).

ويحكى أن الفراء نفسه قال: (قال أعرابي، ونحن في حلقة يونس بن حبيب بالبصرة: أين مسكنك؟ فقلت: الكوفة، فقال لي: يا سبحان الله هذه بنو أسد بين ظهرانكم، وأنت تطلب اللغة بالبصرة!)(35).

قال ابن منظور: (أفصح العرب أبرُّهم، معناه: أبعدهم في البرِّ والبدو داراً)(36).

قريش لم تشتهر بصناعة الكلام ولا بالشعراء ولا بالخطباء، بل ليس فيهم شاعرٌ واحدٌ فحلَّ يوازي شعراء المعلقات، والثابت أنهم لم يشتهروا إلا بالتجارة والأسواق والبيع والشراء، وبرحلة الشتاء والصيف، وسدانة بيت الله تعالى الحرام وخدمة حججه، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة مشيراً إلى ما أنعم عليهم من الرحلات التجارية التي كانت تقوم بها قريش صيفاً وشتاءً 37 (في سورة سُميت باسمهم: (قريش) قال فيها عَزَّ وَجَلَّ: ((لِإِبْلَافِ قُرَيْشٍ، إِبْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ، فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ، الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ)) 38 (. وإذا كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب بسبب أنه من قريش، فلا ميزة فضل له في ذلك؛ لأنه سيعني أن كل واحدٍ من قريش هو أفصح العرب بسبب نسبه من قريش، والنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيكون واحداً من آلاف القريشيين الذين هم أفصح العرب بسبب أنهم من قريش، ولماذا لا يكون القرشيون الآخرون أفصح العرب أيضاً أو أفصح منه؟!)

وعلى افتراض صحة الحديث فإن (بيد) في تفسير علماء العربية وغريب الحديث على معنيين: (غير)، و(على)(39)، والأول أعلى، يقال: رجلٌ كثيرُ المالِ بَيِدٌ أنه بخيلٌ، معناه غير أنه بخيل(40)، ويكون معناه على التفسيرين: أنا أفصح العرب غير أنني من قريش أو على أنني من قريش، وليس فيه دليلٌ على فصاحة قريش، وإنما على فصاحة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أجل إثبات علو فصاحة قريش، تأوَّلوا الحديث من باب تأكيد المدح بما يشبه الذم، فجعلوا (بيد) بمعنى (إلا)، وأن ما قبلها مدحٌ وما بعدها صفة مدح تأكيد للمدح الأول(41)، وبعضهم فسَّرَ لفظة (بيد) بمعنى (من أجل)؛ ليجعلوا الفصاحة للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولقومه بمنزلة واحدة، فقالوا: يأتي (بيد) بمعنى من أجل(42)، فصار معنى الحديث: أنا أفصح العرب من أجل أنني من قريش، وأني نشأت في بني سعد بن بكر(43). ورفض علماء اللغة هذا المعنى، قال ثعلب: (بيد، وميد، وغير؛ بمعنى واحد)(44)، وقال ابن مالك: إن معناها في هذا الحديث بمعنى (غير)(45)، ويؤيد ذلك قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أنا أعزُّكم، أنا من قريش، ولساني لسان بني سعد بن بكر)) (46)، فإذا افترضنا صحة هذا الحديث الذي حكمه أعلى من الحديثين السابقين اللذين لا أصل لهما (47)، فقد بين فيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أفصح العرب وأعزُّهم، مع أنه من قريش الذين لسانهم ليس لسان أفصح العرب، لكن لسانه لسان بني سعد المشهورين بالفصاحة؛ لذا فإنَّ الفصاحة قد جاءت بسبب نشأته في بني سعد، وليس بسبب نسبه لقريش، حتى أصبح أفصح العرب، وأفصح من نطق بالضاد، وعلى هذا الحديث يكون بنو سعد أفصح العرب، أو على تقدير (من)، أي: من أفصح العرب، لكن مع ذلك لا أرى أن فصاحته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العالية التي ساد بها فصحاء العرب كانت بسبب نشأته فقط في بني سعد؛ لأن ذلك يعني أن كل قريشي نشأ في بني سعد سيكون أفصح العرب، بل يصح أن يكون أبناء بني سعد أفصح العرب قاطبة، بل أفصح من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نشأ بضع سنوات فيهم، وبلغ من الفصاحة ما ساد به العرب، فمن باب أولى أن من نشأ فيهم وبلغ مبلغ الرجال حتى شاخ بينهم، وقضى عمره فيهم سيكون أفصح العرب بلا نزاع، ولا يتقدم أحدٌ من العرب فصاحته أو فصاحة أحدٍ من أبنائهم، وهذا ما لم نقله العرب، وفيه تكلفٌ وإدعاءٌ وحصرٌ للفصاحة في قوم مخصوصين دون سائر العرب، ولا ننكر أنهم أفصح العرب، ولا ننكر أن قريشاً كانت ترسل أبناءها إليهم؛ لينشؤوا على فصاحة ألسنتهم، لكن هذا لا يعني أن كل فرد

منهم هو أفصح العرب قاطبة، ولا أن من نشأ بينهم صار أفصح العرب؛ لذلك لا يصح أن يكون النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ أفصح العرب؛ لأنه نشأ في بني سعد بضع سنوات، ولا سيما أن الكثيرين من قريش نشؤوا معه في بني سعد كعمه الحمزة رضي الله عنه، بل يوجد من قريش من رضعوا معه من صدر حليلة السعدية نفسها رضي الله عنها كابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه (48)، فلماذا لا يكونون بفصاحته أو أفصح منه؟! وهل النشأة في بني سعد تعطيه _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ سيادة الفصاحة المطلقة على العرب جميعاً؟ إن هذا يعني أن أبناء بني سعد، ولاسيما شيوخهم الذين قضا أعمارهم في قومهم يملكون مثل هذه السيادة في الفصاحة، بل يستحقون أن يكونوا أفصح العرب بلا منازع، بل أفصح بكثير من النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ قبل النبوة؛ لأن من نشأ بينهم بضع سنوات كالنبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ صار أفصح العرب، فمن باب أولى أن من عاش عمره بينهم يكون أعلى فصاحة منه.

وقد تنبّه إلى هذا المعنى العفاد في كتابه (عبرية محمد) بما أوجزه بقوله: (ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس، فيتاح له الكلام الجميل، ثم يعوزه النطق الجميل. أما محمد فقد كان جمال فصاحته في نطقه، كجمال فصاحته في كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة -- رضي الله عنها -- حيث قالت: (ما كان رسول الله _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ يسرّد سركم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس إليه) (49)، واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها في أحسن مواقعها، فهو صاحب كلام سليم في نطق سليم، ولكن الرجل قد يكون عربياً قرشياً مسترضعاً في بني سعد، ويكون سليماً في كلامه سليماً في نطقه، ثم لا يقول شيئاً يستحق أن يستمع إليه السامع في موضوعه. فهذا أيضاً قد ننزه عنه الرسول في فصاحته السانعة من شتى نواحيها، فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتي حقاً (جوامع الكلم)، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام) (50)، فإذن، كانت فصاحة كلامه وحلاوة منطقة رزقاً أعطاه الله إياه بوحى بعد النبوة، وليس بسبب النسب من قريش أو النشأة في بني سعد، فكثير ممن يمتازون بهاتين الصفتين لم يُعرف عنهم فصاحة تُذكر، فبطل ادعاء فصاحته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ بسببهما. ونجد القول الشافي في فصاحته الطبيعية كأقرانه الفصحاء من بني سعد أو قريش قبل الإسلام بما قاله سيد قريش جده عبد المطلب، لما رُدته حليلة السعدية إلى مكة، وهو ينظر إليه، وقد نما نمو الهلال، وهو يتكلم بفصاحة، فامتلاً سروراً، وقال: (جمال قريش، وفصاحة سعد، وحلاوة يثرب) (51)، فلم ينسب فصاحته لقريش، وإنما لبني سعد، ولكن هذه الفصاحة بكل تقديراتها لم تكن إلا فصاحة طبيعية لا يختلف بها كثيراً عن أقرانه، ولم يتصدر بها عليهم، لكن ميّزه الله بفصاحة نادرة ساد بها فصحاء العرب بعد نزول القرآن الكريم؛ لأن العرب منذ بداية تكوينهم جعلهم الله يعنون باللسان والفصاحة؛ لذا كان اسمهم من البيان والوضوح، ولأهمية الفصاحة عندهم جعل من أهم ما يمتاز به نبيهم اللسان والفصاحة، فآلهمة العربية المبينة عربية القرآن الكريم إلهاماً ووحياً؛ لبتيميز بلسانه على العرب المرسل إليهم، مصداقاً لقوله _تعالى_: ((فَاتِمًا يَسْرُزَاهُ بِلِسَانِكَ لِيُثَبِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا)) (52)؛ ليكون أفصح العرب بها، وأفهمهم وأعلمهم بلغة القرآن، حتى يكون مرجعاً للعرب في فهم كلام الله المنزل بلغتهم، وليفوق ألسنة العرب الذين يدينون بالطاعة والاحترام لأصحاب الألسنة والفصاحة، لأن من شروط السيادة والكمال عندهم أن يكون الرجل فصيحاً بليغاً، فلا ينال السيادة على العرب إلا من فاقهم فصاحة وبياناً، فكان من لوازم خيريته _صلى الله عليه وسلم_ وسيادته على العرب، وانقيادهم له أن يكون أفصحهم لساناً.

يؤيد ذلك قوله _صلى الله عليه وسلم_ في يوم دجن: ((كَيْفَ تَرَوْنَ بَوَاسِقَهَا؟ قَالُوا: مَا أَحْسَنَهَا وَأَشَدُّ تَرَاخُمَهَا قَالَ: كَيْفَ تَرَوْنَ قَوَاعِدَهَا؟ قَالُوا: مَا أَحْسَنَهَا وَأَشَدُّ تَمَكُّنَهَا، قَالَ: كَيْفَ تَرَوْنَ جَوْنَهَا؟ قَالُوا: مَا أَحْسَنَهُ وَأَشَدُّ سَوَادَهُ! قَالَ: كَيْفَ تَرَوْنَ رَحَاهَا اسْتَدَارَتْ؟ قَالُوا: نَعَمْ مَا أَحْسَنَهَا وَأَشَدُّ اسْتِدَارَتَهَا! قَالَ: كَيْفَ تَرَوْنَ بَرَقَهَا أَحْفُوا أَوْ وَمِيضًا أَمْ يَشَقُّ شَقًّا؟ قَالُوا: بَلْ يَشَقُّ شَقًّا قَالَ: الْحَيَا، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَفْصَحَكَ مَا رَأَيْتَا الَّذِي هُوَ أَعْرَبَ مِنْكَ، قَالَ: حُقُّ لِي، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ

الْقُرْآنَ عَلَيَّ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) (53). إذ أجاب الرجل المتعجب من فصاحته العالية ، بقوله: ((حُقَّ لِي، وَإِنَّمَا أَنْزَلَ الْقُرْآنَ عَلَيَّ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ)) (54)، وفي رواية ثانية قال: ((وما يمعني وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عَرَبِيٍّ مُبِينٍ، وإني من قريش، ونشأت في بني سعد)) (55)، فنسب _ عليه الصلاة والسلام _ سبب فصاحته العالية إلى القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب المشتركة المختارة المبينة، أي: إن فصاحته _ عليه الصلاة والسلام _ بالهام مع القرآن الكريم وبسببه، ثم وضَّح ذلك بقوله: ((وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين))، أي: نزل القرآن بلسان لغة العرب المبينة المشتركة التي هي لسانه _ عليه الصلاة والسلام _، ولم يقل إنها لسان قريش، ولم يقل نزل بلسان قريش، بل بيَّن سبب تمكنه من لغة العرب التي نزل بها القرآن الكريم؛ لأنه من قريش التي تبنت هذه اللغة، والذي ميزه بها أكثر على قريش والناس أجمعين أنه تربى في بني سعد الذين هم أفصح العرب بلغة العرب المشتركة التي نزل بها القرآن الكريم؛ لذلك كان الصحابة الكرام _ رضي الله عنهم _ إذا طرأ إشكالٌ لهم في لغة القرآن الكريم، أو في معنى من معانيه في زمن حياة النبي _ صلى الله عليه وسلم _، هرعوا إليه، ولم يسألوا أحدًا من قريش ولا غيرها؛ لإيمانهم أنه أفصح العرب، وأعرفهم بلغة العرب وحيًا وتأييدًا من الله، وليس لنسبه من قريش ولا لنشأته في بني سعد، فهما يشتركان معه في هاتين الصفتين، وهذا دليلٌ صارخٌ على أن الله قد وهبه _ صلى الله عليه وسلم _ فصاحة متميزة ساد بها فصحاء العرب؛ ليكون مهيبًا لفصاحة القرآن المنزل عليه، وليكون أعرف الناس بلغته وبيانه وتبليغه للناس تحقيقًا ومصدقًا لقوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)) (56)، ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)) (57)؛ لأن من لوازم التبليغ والتبيين والنبوة أن يكون _ صلى الله عليه وسلم _ أفصح الناس وأعرفهم بكلام الله المنزل بلسانه العربي المبين، ولا يصح مع أمر النبوة والتبليغ والتبيين أن يكون في العرب من هو أفصح، أو أبلغ، أو أفهم منه بلغة القرآن الكريم، أو بكلام العرب ولغتهم الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم؛ لذلك لم يرد إلينا نصٌّ واحدٌ يبين أن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ أو بكلام العرب ولغتهم الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم، كما أشكل على فصحاء قريش وسادتهم بعد وفاته _ صلى الله عليه وسلم _، فروي أن أمير المؤمنين عمر _ رضي الله عنه _ قرأ قوله تعالى: ((وَفَاكِهَةٌ وَأَبَّاءُ)) (58) فلم يعرف معنى (أبًا). فراجع نفسه، وردد (ما الأب؟) (ما الأب؟) (59)، ثم قال: إن هذا تكلفٌ منك يا ابن الخطاب (60)، وروي عنه أيضًا أنه كان يتساءل عن معنى الكلالة؟ (61) ومثله ما روي عن عبدالله بن عباس _ رضي الله عنهما _، وهو ابن عم رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _ عليه وسلم القرشي صليبيَّة، وخبِر الأمة، وترجمان القرآن، وسنام اللغة، ومن آل بيت النبوة، ووارث علمه أنه قال: (كلُّ القرآن أعلمه إلا أربعًا: غسلين، وحنائًا، وأواه، والرقيم) (62)، كما أن الصحابة الكرام _ رضي الله عنهم _ بعد وفاته _ صلى الله عليه وسلم _، لم يجدوا بينهم من يوازي فصاحته المرتبطة بالقرآن الكريم وبالنبوة والوحي؛ ليكون مرجعًا لهم في لغة القرآن، كما كان _ عليه الصلاة والسلام _؛ لذلك كان إذا أشكل عليهم بعده _ صلى الله عليه وسلم _ شيءٌ في لغة القرآن الكريم استعانوا بشعر العرب، وبفصحاء العرب؛ لفهم ما أشكل عليهم وتفسيره، ولم يستعينوا بشيوخ قريش وفصحاءها الذين أشكلت ألفاظٌ منه عليهم، فأمرهم عبدالله بن عباس _ رضي الله عنهما _، أن يلتمسوا غرائبه ومعانيه في لغة العرب وأشعارهم، بقوله: (التمسوا غرائب القرآن في أشعار العرب) (63)، فلم يقل التمسوها في أشياخ قريش وفصحاءها؛ لأنه لم يكن بينهم من يوازي فصاحة النبي _ صلى الله عليه وسلم _، أو يحلُّ محلَّه على الرغم من وجود منات مثله _ صلى الله عليه وسلم _ من قريش صليبيَّة ممن اجتمع فيهم النسب القريشي والنشأة في بني سعد، ممَّا يدلُّ دلالة قاطعة على أن فصاحته _ صلى الله عليه وسلم _ لم تكن بالنسب ولا بالنشأة، وأنه لا يوازي فصاحته _ صلى الله عليه وسلم _ إلا مجموع فصحاء العرب ونوابغهم، وليس في قريش ولا غيرهم أحدٌ يوازي أو يعوض عن فصاحته؛ لذا من يحصر فصاحته _ صلى الله عليه وسلم _ بسبب الأصل أو النشأة، فعليه أن يأتي بالدليل الصحيح القاطع المقنع.

المبحث الثالث: فصاحة النبي محمد _ صلى الله عليه وسلم _ بالهام ووحى إلهي، وليس بسبب النسب والنشأة:

لم أجد فيما قرأت من كتب الحديث والسيرة والتراث مآ وصف النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ قبل النبوة نصاً واحداً لمسلم أو مشرك يبين أن قريشاً قبل النبوة ونزول القرآن الكريم كانت تُصَدِّرُ النَّبِيَّ _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ في حديثها ومجالسها أو تستعين به في مخاطبة الوفود، أو ما يحتاجون إليه من الخطيب في خطوبهم وأيامهم ومناسباتهم، بل لم أجد نصاً واحداً يثبت أن النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ قد امتاز بفصاحة نادرة ميّزته عن رجالات قريش قبل النبوة، فضلاً عن أن يمتاز بها على العرب عموماً، حتى بزّ أقرانه بها، أو تقدّم بها عليهم، ممّا جعلهم يحكمون بأنه أفصحهم لساناً، فيقدمونه عليهم في الخطابة، أو في حواراتهم ومعاهداتهم وما يحتاجون فيه إلى لسان فصيح يفحمون به الآخرين، ولو كان ذلك موجوداً لذكرته كتب السيرة والأحاديث الشريفة التي وصفت كلّ ما يتعلق به _صلى الله عليه وسلم_ من الصغيرة إلى الكبيرة، ومن الولادة إلى الممات، حتى قال الرافعي: (ليس في التاريخ العربي كلّ من جُمعت صفاته، وأحصيت شمائله، وتواتر النقل بذلك جميعه من طرق مختلفة على توثق إسنادها غير النبي _صلى الله عليه وسلم_، وهذا أصل لا يعدل به شيء في بيان حقائق الأخلاق، والاستدلال على قوة الملكات، واستخراج الصفات النفسية التي حصل من مجموعها أسلوب الكلام على هيئته وجهته، وانفراد بما عسى أن يكون منفرداً به، أو شارك فيما عسى أن يكون مشاركاً فيه) 64، ولاشتهر بها قبل النبوة كما اشتهر بأنه الصادق الأمين(65)، ويؤكد مشركو قريش هذه الحقيقة على لسان أحد كبار شياطينهم، وهو النَّصْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ بْنِ عَلْقَمَةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ الْقُرَيْشِيِّ، فقال خطيباً في ناديهم: (يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ. إِنَّهُ وَاللَّهِ قَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ، مَا أَنْتُمْ لَهُ بِجِيلَةٍ بَعْدُ، قَدْ كَانَ مُحَمَّدٌ فِيكُمْ غَلَامًا حَدَثًا، أَرْضَاكُمْ فِيكُمْ. وَأَصْدَقَكُمْ حَدِيثًا. وَأَعْظَمَكُمْ أَمَانَةً. حَتَّى إِذَا رَأَيْتُمْ فِي صُدْعَيْهِ الشَّيْبَ، وَجَاءَكُمْ بِمَا جَاءَكُمْ بِهِ. قُلْتُمْ سَاجِرٌ. لَا وَاللَّهِ، مَا هُوَ بِسَاجِرٍ. لَقَدْ رَأَيْنَا السَّحْرَةَ وَنَفْتَهُمْ وَعَقْدَهُمْ، وَقُلْتُمْ كَاهِنٌ. لَا وَاللَّهِ، مَا هُوَ بِكَاهِنٍ قَدْ رَأَيْنَا الْكُهْنَةَ وَتَخَالَجَهُمْ، وَسَمِعْنَا سَجْعَهُمْ، وَقُلْتُمْ شَاعِرٌ. لَا وَاللَّهِ، مَا هُوَ بِشَاعِرٍ، قَدْ رَأَيْنَا الشُّعْرَ وَسَمِعْنَا أَصْنَافَهُ كُلَّهَا هَزَجَهُ وَرَجَزَهُ، وَقُلْتُمْ مَجْنُونٌ. لَا وَاللَّهِ، مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، لَقَدْ رَأَيْنَا الْجِنُونَ فَمَا هُوَ بِخَفِيفِهِ وَوَسْوَاسِيَّتِهِ وَلَا تَخْلِيلِيهِ. يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَاذْطَرُّوا فِي شَأْنِكُمْ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ)(66)، فلم يذكر خطيب قريش أنه _صلى الله عليه وسلم_ كان أفصحهم، وهي صفة تدعو إلى تفاخر أصحابها، وعلو مكانتهم، كما يمكن أن تكون حجة للطعن بما جاء به النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ من قرآن، بل لو وُجِدَتْ هذه الفصاحة لكانت أعظم هدية لقريش من أجل التخلص من الإحراج الشديد الذي أوقعهم به النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ بتحديثهم أن يأتوا بمثل القرآن، ولقالوا إنّه من فرط فصاحته وقوتها جاء بهذا النظم الذي يتحدانا به؛ لذلك لم يذكرنا بالتميزه بالفصاحة لعدم وجودها، وما ذكره من أنّه جاءهم بهذا النظم الذي حاروا بوصفه فإنّما هو اعتراف وإشارة منهم إلى أنّه جاءهم بشيء جديد لم يألوه منه من قبل، ولم يكن يمتاز بمثله قبل نزول القرآن عليه، لذلك ذكرنا ما اشتهر به قبل النبوة من صدق الحديث وأداء الأمانة؛ لذا كانت كلّ الأحاديث التي تدلّ على علو فصاحته وسيادته على السنة العرب الفصحاء محصورة بعد النبوة، لكن يحاول الكثيرون بحسن نية، أو دون تدقيق وتمحيص، أو تعصباً ومحبة وتقديساً سحبها إلى قبل النبوة، ليجعلوا فصاحته واحدة منذ طفولته وشبابه قبل الإسلام إلى ما بعد الإسلام واكتمال رجولته، وحتى مماته _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، وهذا لا يُقْبَلُ عقلاً ولا شرعاً، فكمال خلقه وأخلاقه ورجولته ومحاسن صفاته لا تختلف في علوها قبل النبوة وبعدها، لكنّ كمال فصاحته مرتبطة بالنبوة ونزول القرآن الكريم، ولولا النبوة لما كان أفصح العرب؛ لأنّه قضى أربعين سنة قبلها ولم يتميّز عن أقرانه بفصاحة نادرة، ولا ساد قومه بفصاحته، ولا سيّما أنّه لم يتميّز لا بشعر، ولا بخطابته، ولا بفن فنون القول، ولا بطريقة تجذب الأسماع حتى يشتهر بها بين قومه، فكيف يسود بهذه الفصاحة الطبيعية العرب جميعاً؟! هذا أمر لا تقبله القياسات العقلية والمنطقية والبحثية، ولا سيّما أنّه لا يوجد دليل واحد على تميزه بالفصاحة عن أقرانه قبل النبوة، وأمّا الأحاديث التي تنسب الفصاحة له بسبب النسب أو النشأة في بني سعد فهي لا أصل لها، وكأنّها غير موجودة، وإذا سلّمنا بوجود بعضها فأقواها قد حكم العلماء بضعفها، كما أنّها قبلت بعد النبوة واكتمال فصاحته، على أنّها لا تخلو من ذكر سبب الوحي والتأييد الإلهي، ولا تقتصر على سبب النسب أو النشأة فقط، وإذا قيل إنّ الأحاديث الضعيفة

قد يصح الأخذ بها في فضائل الأعمال والسيرة إذا لم يوجد ما يعارضها في صحيح السنة النبوية والسيرة الشريفة، فنقول لا نختلف في ذلك، لكن لم تُنقل إلينا أحاديثٌ ونصوصٌ تبين علو فصاحته _ عليه الصلاة والسلام _ وتميُّزه على أقرانه قبل نزول القرآن، فكلُّ الأحاديث التي تثبت بنظمها وأسلوبها وألفاظها فصاحته _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ التي ساد بها العرب قاطبة كانت بعد النبوة ونزول القرآن؛ لذا أرى أنَّه _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ كان قبل النبوة فصيحاً كأقرانه من قريش بسبب نشأته في بني سعد، بل قد يكون امتياز بعض الشيء بفصاحته على أقرانه من أهل قريش بسبب نشأته في بني سعد، ولا سيَّما على القريشيين الذين لم ينشؤوا مثله في بني سعد، لكنَّه لم يكن نادر الفصاحة بشكل يجذب الأنظار إليه، ولا يمكن أن يكون أفصح قريش، فضلاً عن أن يكون لديه من الفصاحة ما يسود بها فصحاء العرب، ولو كان كذلك لضخمت قريش هذه القضية، ولاستندت إليها في اتهامه بأنَّ القرآن الكريم الذي أعجزهم به، وأعجز العرب جميعاً أن يأتوا بسورة واحدة من مثل سورة القصار، إنَّما كان من صناعته وتأليفه؛ لأنَّه كان يمتلك لساناً موهوباً بشكل لافت للنظر، بل كان مشهوراً بالفصاحة إلى درجة أنَّه ساد العرب بفصاحة نادرة برَّ بها أقرانه وفصحاء العرب، فلا غرابة أن يأتي بمثل القرآن، ثمَّ ينسبه إلى الله، ويدَّعي أنَّه يأتيه الوحي من السماء به، فكان من حفظ الله له وللقرآن الكريم، بل كان من ارهاصات النبوة وعلامتها أنَّ فصاحته _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ لا تختلف كثيراً عن فصاحة أقرانه من قريش قبل النبوة، ثم بعد النبوة أكرمه الله بالفصاحة العالية المتميِّزة بوحى وإلهامٍ وتأييدٍ إلهيٍّ، بدليل شهادة النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ بنفسه في قوله: ((أَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ)) (67)، و((أَعْطَيْتُ مَفَاتِيحَ الْكَلِمِ)) (68)، أي: وهبني الله جوامع الكلم ومفاتيحه وحيًا، وهذا غاية الفصاحة وأعلامها، و(حاصله أنَّه _ صلى الله عليه وسلم _ كان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني) (69)، وفي لفظ آخر قال: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)) (70)، ((وخواتمه، واختصر لي الكلام اختصارًا)) (71)، ويكفي للدلالة على علو فصاحته _ عليه الصلاة والسلام _ بعد النبوة أنَّه أوتي القرآن الكريم الذي هو منتهى الفصاحة ودستورها ومرجعها، ثم أوتي مثل القرآن الكريم معه، بقوله: (أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) (72)؛ فمن أوتي القرآن الكريم كان آية في الفصاحة، فما بالك بمن أوتي مثله معه! وما بالك بمن قال فيه _ جلَّ وعلا _ : ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ)) (73)!

فرزقه الله جوامع الكلم والفصاحة النادرة على الرغم من أنَّه أمِّي لا يقرأ ولا يكتب، وكانت أمِّيُّه كما كانت فصاحته العادية قبل النبوة التي لا يمتاز بها عن أقرانه دليلًا على نبوته، ومما يفخر بها _ صلى الله عليه وسلم _ بقوله: ((أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ، أَنَا مُحَمَّدُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ - ثَلَاثًا - وَلَا نَبِيَّ بَعْدِي، أُوتِيتُ فَوَاتِحَ الْكَلِمِ وَجَوَامِعَهُ وَخَوَاتِمَهُ)) (74)، فمع أنَّه أمِّي لا يملك مفاتيح العلم وأسباب بلوغ الفصاحة وعلو اللغة، وهي القراءة والكتابة، كما لا يملك موهبة الشعر وفنونه، لكنَّه أُعطي فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه بهبة ربَّانية ساد بها على العرب الفصحاء جميعاً، وهذا غاية الفصاحة والبيان؛ لذلك كان عدم معرفة القراءة والكتابة يعدُّ منقصةً للرجال والنساء إلا في النَّبِيِّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _، فهي من علامات كماله وافتخاره؛ وأراده الله بهذه الصفة؛ لتكون من مكملات النبوة، حتى يكون القرآن الكريم الذي نزل عليه حجة على العالمين، فقال له: ((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُ بِبِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)) (75)، وأكَّد رسول الله _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ بنفسه حقيقة عدم معرفته القراءة والكتابة بما نفاه عن نفسه في بدء الوحي، وهو في غارٍ جزاء، عندما جاءه الملكُ فيه، فقال له: ((اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّلَاثَةَ، ثُمَّ أُرْسَلَنِي، فَقَالَ: ((اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلْقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)) (76))) (77)، قال ابن حجر العسقلاني في شرح الحديث: (ما: نافية، إذ لو كانت استفهامية لم يصلح دخول الباء، وإن حكى عن الأخفش جوازه، فهو شاذٌ، والباء: زائدة لتأكيد النفي، أي: ما أحسن القراءة) (78)، لذلك لا نعلم إنساناً على وجه الأرض افتخر بأميته إلا النَّبِيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _.

وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأُمِّيَّةَ الَّتِي تَعُدُّ مَنْقُصَةً فِي النَّاسِ أَجْمَعِينَ كَانَتْ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَعْطَتْ لَهُ قُوَّةً وَحِجَّةً وَسَلْخًا أُخْرَسَ بِهِ الْمُشْرِكِينَ وَالْمَعَانِدِينَ وَالْفُصْحَاءَ وَالْمُتَعَلِّمِينَ وَأَصْحَابَ الْكِتَابِ ، وَجَعَلَتْ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَسْمُو فَوْقَ شِبْهَاتِهِمْ ، لِأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَا يَمْتَلِكُ مِنْ مَقُومَاتِ الْفَصَاحَةِ مَا يَمْتَازُ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ أَوْ عَلَى الْعَرَبِ ، قَدْ جَاءَهُمْ بِكَلَامٍ أَعْجَزَ بَلْغَاءَهُمْ وَفُصْحَاءَهُمْ وَشِعْرَاءَهُمْ وَمُتَعَلِّمِيهِمْ مِمَّا يَثْبُتُ بِالْأَدْلِيلِ الْقَاطِعِ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ مِنْ عِنْدِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامُ اللَّهِ الْمُنزَلِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ الْأُمِّيُّ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الشُّعْرَ وَلَا الْقِرَاءَةَ وَالْكِتَابَةَ ، وَهُوَ أَعْجَزُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ بِفِنْ مِنْ فُنُونِ الْكَلَامِ يُوَازِي بِهِ فَصْحَاءَهُمْ وَشِعْرَاءَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِنِظْمِهِ وَبَيَانِهِ وَأَسْلُوبِهِ الَّذِي أَعْجَزَهُمْ وَصَغَّرَهُمْ وَأَهَانَهُمْ بِتَحْدِيثِهِمْ ، وَلَا أَشْكُ بِسَلَامَةِ نَيْتِهِ مَنْ أَدْعَى لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَصَاحَةَ الْعَالِيَةَ الَّتِي سَادَ بِهَا الْعَرَبُ قَبْلَ النَّبُوَّةِ بِسَبَبِ نَسَبِهِ إِلَى قَرِيشٍ أَوْ بِسَبَبِ نَشَأَتِهِ لِبُضْعِ سِنَوَاتٍ فِي بَنِي سَعْدِ ، وَكَيْ يَبْقِيَ إِثْمًا كَانَ يَرِيدُ بِهَذَا الْإِدْعَاءِ أَنْ يَمْدَحَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَيُبَالِغَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، مِثْلَمَا كَانَتْ نَيْتُهُ بَعْضَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ أَدْعَوُا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقْرَأُ وَيَكْتُبُ ، وَأَنَّ وَصْفَهُ بِالْأُمِّيِّ إِثْمًا بِسَبَبِ نَسَبِهِ إِلَى مَكَّةَ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْقُرَى ، وَلَيْسَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِ بِالْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ، مُحَاوَلِينَ تَنْزِيهِهِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عَدَمِ مَعْرِفَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ ؛ لَطَيْبُهُمْ أَنْ ذَلِكَ عَيْبًا لَا يَجُوزُ فِي حَقِّهِ (79) ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ هَذِهِ مِيزَةٌ تُحْسَبُ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ ، فَهِيَ مَنْقُصَةٌ فِي غَيْرِهِ ، لَكِنَّهَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَالْفَخْرِ فِيهِ ، كَمَا كَانَتْ صِفَةً عَدَمِ الشُّعْرِ وَمَعْرِفَةِ فُنُونِ الْقَوْلِ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِهِ ؛ لِأَنَّهَا أَدْلُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِهِ ، وَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَهُوَ لَا يَقْرَأُ ، وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَا يَقُولُ الشُّعْرَ ، وَلَا يُنْشِئُهُ ؟! (80) قَالَ الْمَأْمُونُ لِأَبِي الْعَلَاءِ الْمُتَّقِرِيِّ : (بَلِّغْنِي أَنْكَ أُمِّي ، وَأَنْكَ لَا تُقِيمُ الشُّعْرَ ، وَأَنْكَ تُلْحَنُ فِي كَلَامِكَ . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمَا اللَّحْنُ ، فَرُبَّمَا سَبَقَنِي لِسَانِي بِالْشَيْءِ مِنْهُ ؛ وَأَمَا الْأُمِّيَّةُ وَكُسْرُ الشُّعْرِ ، فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمِّيًّا ، وَكَانَ لَا يُنْشِئُ الشُّعْرَ . فَقَالَ الْمَأْمُونُ : سَأَلْتُكَ عَنْ ثَلَاثَةِ غُيُوبٍ فِيكَ فَزِدْتَنِي رَابِعًا ، وَهُوَ الْجَهْلُ ؛ أَمَا عَلِمْتَ يَا جَاهِلٌ أَنَّ ذَلِكَ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضِيلَةٌ ، وَفِيكَ وَفِي أُمَّتِكَ نَقِيسَةٌ ! (81).

وَالصَّحِيحُ إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ ، وَلَيْسَ بِشَاعِرٍ ، وَهَذِهِ مِنْ صِفَاتِ الْفَخْرِ فِيهِ صَوْنًا لِنُبُوَّتِهِ وَلِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ مِنْ صِفَاتِ الْفَخْرِ وَالْكَمَالِ فِيهِ أَيْضًا إِنَّهُ لَيْسَ أَفْصَحَ قَرِيشٍ وَلَا الْعَرَبِ قَبْلَ النَّبُوَّةِ ، وَلَيْسَ مِتْمَكْنًا مِنْ فُنُونِ الْقَوْلِ ، وَلَمْ يُعْرَفْ بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَسْبِقْ أَقْرَانَهُ بِفَصَاحَةِ نَادِرَةٍ يَفُوقُ بِهَا قَرِيبًا فَضْلًا عَنِ الْعَرَبِ ، فَلَوْ كَانَتْ فَصَاحَتُهُ مَوْهَبَةً وَمِنْحَةً إِلَهِيَّةً اخْتَصَمَهَا اللَّهُ بِهَا قَبْلَ النَّبُوَّةِ لَطَارَتْ بِهَا قَرِيشٌ فَرَحًا ، حَتَّى تَتَّخِذَهَا سَبَبًا لِلطَّعْنِ فِي مَصْدَرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الَّذِي أَحْرَجَهُمْ وَأَعْجَزَهُمْ ؛ وَلِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُعْرِفُ بِفَصَاحَةِ مُمْتِزَةٍ عَنْ أَقْرَانِهِ أَوْ بِفَصَاحَةِ تَلَفَتْ الْأَنْظَارَ أَوْ بِخَطْبَةٍ مُمْتِزَةٍ أَوْ بِأَقْوَالٍ بَلِيغَةٍ فَصِيحَةٍ تَتَنَاوَلُهَا الرُّكْبَانُ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ لَمْ يُذَكَّرْ عَنْ ذَلِكَ ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا أَهْلُ السِّيَرِ وَالتَّأْرِيخِ الَّذِينَ لَمْ يَتْرَكُوا صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ، وَلَا شَارِدَةً وَلَا وَارِدَةً عَنْ تَفَاصِيلِ حَيَاتِهِ وَنَشَأَتِهِ إِلَّا ذَكَرُوهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ فَصَاحَتَهُ قَبْلَ نَزُولِ الْقُرْآنِ لَا تَخْتَلِفُ عَنِ فَصَاحَةِ بَنِي قَوْمِهِ ، بَلْ كَانَ إِنْسَانًا طَبِيعِيًّا عَادِيًّا لَا يَخْتَلِفُ فِي أُمُورِ الْفَصَاحَةِ عَنْ أَقْرَانِهِ مِنْ قَرِيشٍ وَالْعَرَبِ ؛ وَكَانَتْ فَصَاحَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَادِيَّةَ قَبْلَ النَّبُوَّةِ مِنْ إِرْهَاصَاتِ نُبُوَّتِهِ وَكَمَالِهِ ، كَمَا كَانَتْ فَصَاحَتُهُ الْعَالِيَةَ بَعْدَ النَّبُوَّةِ مِنْ مَعْجَزَاتِهِ وَكَمَالِ نُبُوَّتِهِ ، فَكَانَ مِنْ رِعَايَةِ اللَّهِ لَهُ أَنْ جَعَلَ فَصَاحَتَهُ تَنَاسُبَ الْمَرْحَلَةِ الَّتِي تَتَطَلَّبُهَا ، فَكَانَ مِنْ مَتَطَلَبَاتِ مَا قَبْلَ النَّبُوَّةِ أَنْ تَكُونَ فَصَاحَتُهُ لَا تَخْتَلِفُ عَنْ أَقْرَانِهِ وَقَوْمِهِ ، فَلَمَّا أَكْرَمَهُ اللَّهُ بِالنَّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ وَالْقُرْآنِ كَانَ مِنْ مَتَطَلَبَاتِ هَذَا الْفَيْضِ الرَّبَّانِيِّ أَنْ يُلْهَمَ فَصَاحَةً تَلِيْقُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي لَا يَدَانِيهِ فِي الْفَصَاحَةِ كَلَامُ الْأَنْسِ وَالْجِنِّ وَلَوْ اجْتَمَعُوا ؛ لِذَا أَصْبَحَ بِهَيْبَةِ الْفَصَاحَةِ الَّتِي سَادَ بِهَا فَصْحَاءُ الْعَرَبِ وَأَحَاطَ بِلُغَتِهِمْ وَأَسْتَنْتَهُمْ بِهَا ، مَهِيًّا لِمَا امْتَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَهُ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ ، فَقَالَ لَهُ : ((وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)) (82) ، فَأَعْطَاهُ اللَّهُ فَصَاحَةً مُمْتِزَةً لَمْ تُعْطَ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِي الْعَرَبِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ مَنْ يَفْهَمُ لُغَةَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَأَسْرَارَ فَصَاحَتِهِ أَفْضَلَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَكَانَ بِفَصَاحَتِهِ آيَةً وَمَعْجَزَةً ، كَمَا كَانَ بِخَلْقِهِ قِرَاءًا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ ، ثُمَّ زَكَّاهُ وَزَكَّى كُلَّ مَا يَنْطِقُ بِهِ ، وَجَعَلَهُ مَعْصُومًا

من الخطأ فيما يبلغه عن ربّه، بقوله: ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ)) (83). فساده بفصاحته العرب والناس جميعاً بإلهام ووحى وليس بنسب ولا بنشأة، وهذا ممّا لم يصرح به العلماء أو الباحثون الذين تناولوا فصاحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشكل واضح وجليّ، ولم يبرزوا هذه المسألة في سيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان الحديث عن فصاحته بعد نزول القرآن يُسحب إلى حياته قبل الوحي والنبوة والقرآن، ثمّ يوصف بما يُوصف به قبلها، دون بيان وقت تميّزه بالفصاحة، وكأنّما لم يكن للقرآن والوحي أيّ تأثير على لسانه وفصاحته؛ لذلك يتصور بعض الناس دون تحقيق في المسألة أنّه أفصح العرب منذ طفولته، وهذا كلام لا يصح؛ لأنّ كلّ ما ورد من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ممّا يُثبت علو فصاحته وإعجازه اللغوي إنّما كان بعد النبوة، وبعد نزول القرآن الكريم، ونجد إشارات وإضاءات عند بعض علماء البيان واللغة والسيرة والشمال النبوية في بيان هذه الحقيقة من غير التصريح بها بشكل قاطع، أو إبرازها، أو الاقتصار عليها في تحديد تميّزه بالفصاحة، فتضيع في مجمل وصف فصاحته، إذ بينوا أنّه اجتمعت له قوة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى التأييد الإلهي الذي مدده الوحي (84)، وكان من أوائل من أشار لهذه الحقيقة الإمام الزمخشري في مطلع كتابه: (الفتق في غريب الحديث) بقوله: (هذا اللسان العربيّ كانّ الله عزّت قدرته مَحْضَه وألقى زُبْدته على لسان محمد _ عليه أفضل صلاة وأوفر سلام_؛ فما من خطيب يقاومه إلا نكص متفكك الرجل، وما من مصقع يُناهزه إلا رجع فارغ السجّل وما فُرن بمنطقه منطقٌ إلا كان كالبرذون مع الحصان المُطَمَّم ولا وقع من كلامه شيء في كلام الناس إلا أشبه الوضح في نُقْبة الأذهم) (85)، وقال الإمام ابن الأثير في مقدّمة كتابه: (النهاية في غريب الحديث والأثر): (كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفصح العرب لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعذبهم نطقاً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجّة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييداً إلهياً، ولطفاً سماوياً، وعناية ربّانية، ورعاية روحانية، حتّى لقد قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه _، وسمعه يخاطب وفد بني نهد: ((يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره؟! فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أدبني ربّي فأحسن تأديبي، ورُبّيت في بني سعد)) (86)، فكان صلى الله عليه وسلم يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلّاً منهم بما يفهمون، ويحدثهم بما يعلمون، ولهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أمرت أن أخطب الناس على قدر عقولهم)) (87)، فكانّ الله عزّ وجلّ قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، وجمع فيه من المعارف ما تفرّق، ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه، وكان أصحابه رضي الله عنهم _ ومن يقدّ عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله وما جهلوه سألوه عنه، فيوضحه لهم) (88)، فإمكانية مخاطبة الناس على قدر عقولهم ومخاطبة القبائل المتعددة بالسنتهم والتفوق عليهم فصاحة لا يكون إلا بوحي وتأييد إلهي، وسجل يراع بليغ الأبناء ورائد البلاغة العربية وأستاذها الجاحظ هذه الحقيقة بقوله: (وأنا أذكرُ بعد هذا فنّاً آخرَ من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثّر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونزّه عن التكلف، وكان كما قال الله تبارك وتعالى: قل يا محمد: ((وما أنا من المتكفّين)) (89)، فكيف وقد عاب التشديق، وجانب أصحاب التعجير، واستعمل المبسوط في موضع البسط، والمقصور في موضع القصر، وهجر الغريب الوحشيّ، ورغب عن الهجين السوقيّ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمته، ولم يتكلّم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة، وشُدّ بالتأييد، ويُسرّ بالتوفيق، وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبّة، وغشّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبيّن حُسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلت به قدّم، ولا بازت له حجّة، ولم يُفم له خصم، ولا أحمه خطيب، بل بيّد الخُطب الطوال بالكلم القصار ولا يَلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم، ولا يحتج إلا بالصدق، ولا يطلب الفلج إلا بالحق، ولا يستعين بالجلابة، ولا يستعمل الموازية، ولا يهيمز ولا يلمز، ولا يُبطن ولا يُعجل، ولا يُسهب ولا يُحصّر، ثم لم يسمع الناس بكلام قطّ أعمّ نفعاً، ولا أقصد لفظاً، ولا أعدل وزناً، ولا أجمل مذهباً، ولا أكرم مطلباً، ولا أحسن موقعاً، ولا أسهل مخرجاً، ولا أفصح معنى، ولا أبين في فحوى، من كلامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كثيراً.... ولعلّ

بعض من لم يتسع في العلم، ولم يعرف مقادير الكلام يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ومن التزيين والتجويد ما ليس عنده، ولا يبلغه قدره، كلاً، والذي حرّم التزييد على العلماء، وقبّح التكلف عند الحكماء، وبهرج الكذابين عند الفقهاء، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه(90)، فهذا الوصف لا يكون إلا لكلام شملته رعاية الله وصانته حتى أصبح قريباً من فصاحة القرآن المعجز، ثم أسهب الجاحظ في ذكر عشرات الأحاديث المنتقاة من بعض لآلى بحر فصاحته التي بلغت من البيان منتهاه، ومن البلاغة أقصاها، حتى لا يُعرف على وجه الأرض كلامٌ بشرٍ مهما كان بليغاً يقارن بكلامه، وأيده بذلك البيهقي بقوله: (وله _ صلى الله عليه وسلم _ في هذا النوع ألفاظٌ لم يُسبق إليها _ صلى الله عليه وسلم _ (91)، وقد وصف بعضاً منها القاضي عياض بقوله: (وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان _ صلى الله عليه وسلم _ من ذلك بالمحلّ الأفضل، والموضع الذي لا يُجهل سلاسةً طبع، وبراعةً منزع، وإيجازاً مقطع، ونصاعةً لفظ، وجزالةً قول، وصحةً معاني، وقلةً تكلف. أوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعُلم السنة العرب، يخاطبُ كلَّ أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله(92)، فأشار البلغاء والفصحاء إلى أنه: (أوتي جوامع الكلم، وخُصَّ ببدائع الحكم، وعُلم السنة العرب)، وهذا لا يكون إلا بوحى وتأييد إلهي انتقل به فجأة من إنسان لا يختلف عن فصاحة أقرانه إلى فصاحة خجل منها الشعراء المُفلقون والخطباء المصافح الذين يرمون في حلق البيان عند هذر الشفاشق، ويصيبيون الأغراض بالكلم الرواشق، ويتنافنون من السحر في مناظم قريضهم وزجرهم وقصيدهم ومقطعاتهم وخطبهم ومقاماتهم؛ وما يتصرفون عليه فيها من الكناية والتعريض والاستعارة والتمثيل وأصناف البديع وضروب المجاز والافتنان في الإشباع والإيجاز مالو عثر عليه السخر في زمن موسى _ عليه الصلاة والسلام _ والمؤجذون، واطلع طلعه أولئك المشعوذون، لقعدها مقومرين مهورين، ولبقوا مبهوتين مهورين، ولاستكانوا، وأذعنوا، وأسهبوا في الاستعجاب، وأمعنوا، ولعلموا أن نقاتل لسانه _ صلى الله عليه وسلم _ أحق بالتسمية السخر، وأنهم في صخضاح منه، وهؤلاء بحجوا في البحر(93).

ونجد الخطابي أكثرهم وضوحاً وإبرازاً لهذا المعنى بقوله: (اعلم أن الله لما وضع رسوله موضع البلاغ من وحيه ونصبه منصب البيان لدينه اختار له من اللغات أعربها ومن الألسن أفصحها وأبينها، ثم أمده بجوامع الكلم، ومن فصاحته أنه تكلم بألفاظ أقتضيتها لم تسمع من العرب قبله، ولم توجد في مُتقدم كلامها كقوله: ((مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ)) (94)، ((وَحَمِي الوطيس)) (95)، ((ولا يُدْعُ المؤمنُ من جحر مرتين)) (96)) (97). وقد وجدت الإمام الرافي أكثر العلماء المعاصرين الذين يبيّن أن سبب فصاحته العالية كانت بوحى، لكن يضيف إليها سببين آخرين، وهما النشأة وأصله القرشي، بقوله: (ولا نعلم أن هذه الفصاحة قد كانت له _ صلى الله عليه وسلم _ إلا توفيقاً من الله وتوفيقاً؛ إذ ابتعثه للعرب وهم قوم يقادون من ألسنتهم، ولهم المقامات المشهورة في البيان والفصاحة، ثم هم مختلفون في ذلك على تفاوت ما بين طبقاتهم في اللغات، وعلى اختلاف مواطنهم، فمنهم الفصيح والأفصح، ومنهم الجافي والمضطرب، ومنهم ذو اللوثة والخالص في منطقه، إلى ما كان من اشتراك اللغات وانفرادها بينهم، وتخصص بعض القبائل بأوضاع وصيغ مقصورة عليهم، لا يساهمهم فيها غيرهم من العرب إلا من خالطهم أو دنا منهم دنو المأخذ.

فكان _ صلى الله عليه وسلم _ يعلم كل ذلك على حقه، كأنما تكاشفه أوضاع اللغة بأسرارها، وتبادره بحفاتها، فيخاطب كل قوم بلحنهم، وعلى مذهبهم، ثم لا يكون إلا أفصحهم خطاباً، وأسدهم لفظاً، وأبينهم عبارة. ولم يعرف ذلك لغيره من العرب، ولو عُرف لقد كانوا نقلوه، وتحدثوا به، واستفاض فيهم.

ومثل هذا لا يكون لرجل من العرب إلا عن تعليم أو تلقين أو رواية عن أحياء العرب حيناً بعد حينٍ وقبيلاً بعد قبيلٍ، حتى يفلي لغاتهم، ويتتبع مناطقهم، مستفرغاً في ذلك متوفرًا عليه، وقد علمنا أنه _ صلى الله عليه وسلم _ لم ينهياً له شيءٌ ممّا وصفنا، ولا تهياً لأحد من سائر قومه على ذلك الوجه علماً ليس بالظن، ويقيناً لا مساحاً للشبهة فيه؛ إذ تردفت به طرق الأخبار المتواترة، وكان مصداقه من أحوال العرب أنفسهم؛ فما عُرف أن أحداً منهم تقصص اللغات وحفظ ما

بينها من فروق الأوضاع واختلاف الصيغ وأنواع الأبنية، واستقصى لذلك يستظهر به عليهم أو ينتحلهم فيهم؛ بل كانت هذه الأسباب مقطوعة منهم، لا تجد في الطبيعة ما يمتد بها، أو ينميتها، أو يجعل لها عندهم شأنًا، أو يبغيها حاجة من الحاجات الباعثة عليها؛ فليس إلا أن يكون ما خص به النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ من ذلك قد كان توفيقًا وإلهامًا من الله، أو ما هذه سبيله، ممَّا لا ننفذ في أسبابه، ولا نقضي فيه بالظن، فقد علمه الله من أشياء كثيرة ما لم يكن يعلم؛ حتى لا يعيا يقوم إن وردوا عليه، ولا يحصر إن سألوه، ولا يكون في كل قبيلٍ إلا منهم؛ لتكون الحجة به أظهر، والبرهان على رسالته أوضح، وليعلم أن ذلك له خاصة من دون العرب، فهو يفي بهم في هذه الخصلة البيئية، كما يفي بهم في خصال أخرى كثيرة. فهذه واحدة(98)، ولو اقتصر الرافي على هذه الواحدة، وحصر السبب لله وللوحي لكفى، فما ذكر من فصاحته وأسبابها وعلوها وتميزها وإعجازها لا يتأتى لبشر مهما حاول استقصاء لغات العرب ودراساتها، ولو أفنى عمره في سبيل ذلك لما استطاع، ولا سيَّما اللغة العربية التي لا يحيط بها إلا نبيُّ، كما قال الشافعي(99)، أما أن يكون الرجل فصيحًا بما يمتاز به عن قومه وبلسانهم ولهجتهم فهذا شائع في العرب في ذلك الزمن، لكن أن يمتاز عن العرب وعلى العرب جميعًا بالسنتهم ولهجاتهم فذلك لا يكون بمقدرة البشر وأسبابهم، ولا يكون إلا بقدرته إلهية، وهنا تتجلى عظمة الله وقدرته في تمييز لسان نبيه المعظم الذي ارتقى به بعد النبوة من اللسان الفصيح العادي الذي لا يختلف عن قومه وأهله إلى لسان يسود أهله وقبائل العرب جميعًا، لتكون له معجزة نبوية خالصة صافية تلازم منحة النبوة وهباتها، وتوافقها من غير أن نخلطها بالأصل والنشأة والأسباب الدنيوية، ففعل من مكانتها وقيمتها وعلوها؛ لأن الأسباب الأخرى متوافرة لأكثر العرب، ولغالبية قريش، أما سبب النبوة والوحي فهو محصورٌ به _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، فكانت فصاحته من دلالة إعجاز نبوته، فكما أن الأنبياء كانت لهم معجزات خاصة بهم أعطى الله _سبحانه وتعالى_ لنبيه الكريم معجزة القرآن الكريم التي تجلَّى فيه كلام الله، ولم يكن له منه إلا النقل والتبليغ، وخصَّه بفصاحة اللسان النادرة التي توافق، أو تقارب فصاحة القرآن الكريم، وترتقي عن فصاحته التي عُرف بها قبل النبوة بما لم تعرفه عنه قريش ولا العرب، وبما فاقهم بها جميعًا، حتى استغربها منه أصحابه المقربون الذين لازموه، وصاحبوه، وعرفوه قبل النبوة وبعدها أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب _رضي الله عنهما_، وأهل بيته أمثال علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_ الذين أدشهم التحول الكبير في فصاحته بعد النبوة عمَّا كانوا يعرفونه فيه من فصاحة قبل النبوة، وهذا دليلٌ واضحٌ وقاطعٌ على اختلاف فصاحته قبل النبوة عمَّا آلت إليه بعد النبوة؛ لذلك سألوه عن مصدر هذه الفصاحة التي يخاطب بها فصحاء العرب فيفوقهم فيها، وأجابهم أنَّها منحةٌ وهبةٌ ووحى، فكانت هذه النقلة النوعية في فصاحته بعد النبوة معجزة نبوية خاصة به تضاف إلى معجزاته النبوية الكثيرة، وقد ميَّزه الله بها، ووهبها له بعد النبوة ونزول القرآن الكريم؛ ليكون حجةً بها على العرب الذين يتفاخرون بالفصاحة، ويتنافسون فيها، وينقادون لصاحبها؛ لذلك نجزم أن فصاحته التي بزَّ بها أقرانه من قريش والعرب أجمعين فسادهم بها لم تكن إلا معجزة نبوية بوحى وتوقيف من الله _عزَّ وجلَّ_ خلاقًا لما ذهب إليه جمهور العلماء، وخلاقًا لما ذهب إليه الرافي في قوله: (وأما الثانية: فقد كان _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ في اللغة الفرشبية التي هي أفصح اللغات وألينها، بالمنزلة التي لا يدافع عليها، ولا ينافس فيها، وكان من ذلك في أقصى النهاية، وإنما فضلهم بقوة الفطرة واستمرارها وتمكنها مع صفاء الحس ونفاد البصيرة واستقامة الأمر كلَّه، بحيث يصرف اللغة تصريحًا، ويديرها على أوضاعها، ويشقق منها في أساليبها ومفرداتها ما لا يكون لهم إلا القليل منه؛ لأنَّ القوة على الوضع، والكفاية في تشقيق اللغة وتصاريف الكلام، لا تكون في أهل الفطرة مزاولة ومعاناة، ولا بعد نظر فيها وارتياض لها، إنما هي إلهام بمقدار، تهيب له الفطرة القوية، وتعين عليه النفس المجتمعة والذهن الحادث والبصر النفاذ، فعلى حسب ما يكون للعربي في هذه المعاني، تكون كفايته ومقدار تسديده في باب الوضع. وليس في العرب قاطبة من جمع الله فيه هذه الصفات، وأعطاه الخالص منها، وخصَّه بجملتها، وأسلس له مأخذها، وأخلص له أسبابها كالنبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ فهو اصطنعه

لوحيه، ونصبه لبنيانه، وخصه بكتابه، واصطفاه لرسالته؛ وماذا عسى أن يكون وراء ذلك في باب الإلهام وجمام الطبيعة وصفاء الحاسة وثقوب الذهن واجتماع النفس وقوة الفطرة ووثاقة الأمر كله بعضه إلى بعض.

ولا يذهبن عنك أن للنشأة اللغوية في هذا الأمر ما بعدها، وأن أكبر الشأن في اكتساب المنطق واللغة، للطبيعة والمخالطة والمحاكاة، ثم ما يكون من سمو الفطرة وقوتها فائماً هذه سبيله: يأتي من ورائها، وهي الأسباب إليه؛ وقد نشأ النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتقلب في أفصح القبائل وأخلصها منطقاً، وأعذبها بياناً، فكان مولده في بني هاشم، وأخواله في بني زهرة، ورضاعه في سعد بن بكر، ومنشؤه في قريش، ومتزوجه في بني أسد، ومهاجرته إلى بني عمرو، وهم الأوس والخزرج من الأنصار، لم يخرج عن هؤلاء في النشأة واللغة؛ ولقد كان في قريش وبني سعد وحدهم ما يقوم بالعرب (جملة) (100)، قد فات أديبنا الكبير أن صفتي الأصل القرشي والنشأة في بني سعد يشاركهما فيه الكثير من قريش، بل قد يكون أغلب رجال قريش يمتازون بهاتين الصفتين، لكن لم يظهر رجلٌ واحدٌ منهم يشابه النبي -صلى الله عليه وسلم- أو يدانيه بفصاحته، أما صفة النبوة والوحي فقد انفرد بها -صلى الله عليه وسلم-، ولا يوجد في العرب كلها من يشاركه بها، فتفرده بالفصاحة النادرة المتميزة بعد النبوة لا تفسير لها عندي إلا الوحي والإلهام الإلهي، وليست بأصله ونسبه من قريش أو نشأته في بني سعد.

ويمكن أن نستأنس ببعض الروايات في غير كتب الصحاح بما يقوي هذا المعنى، ومنها ما روي عن علي -رضي الله عنه- أنه قال: ((قدم بنو نهد بن زيد على النبي -صلى الله عليه وسلم-، فقالوا: أتيناك من غوري تهامة، وذكر خطبتهم، وما أجابهم به النبي -صلى الله عليه وسلم-، قال: فقلنا: يا نبي الله، نحن بنو أب واحد، ونشأنا في بلد واحد، وإنك لتكلم العرب بلسان ما نفهم أكثره، فقال: إن الله عز وجل أدبني فأحسن أدبي، ونشأت في بني سعد بن بكر)) (101)، ويؤيد ذلك ما روي أيضاً أن رجلاً من بني سلول قال: ((يا رسول الله، أيدالك الرجل امرأته؟ قال: نعم إذا كان ملفجاً. فقال له أبو بكر: يا رسول الله ما قال لك، وما قلت له؟ قال له رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: إنّه قال: أيماطل الرجل أهله؟ قلت له: نعم إذا كان مفلساً. فقال أبو بكر: يا رسول الله لقد طفئت في العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك، فمن أدبك؟ قال: أدبني ربي ونشأت في بني سعد)) (102)، فقله: (أدبني ربي) أي: وهبني ربي هذا اللسان كما وهبه لإسماعيل -عليه السلام-، بدليل ما روي عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: ((يا رسول الله، مالك أفصحنا، ولم تخرج من بين أظهرنا؟ قال: كانت لغة إسماعيل قد درست، فجاء بها جبريل -عليه السلام- فحفظنيها، فحفظتها)) (103)، أي: إن فصاحته -عليه السلام- التي فاقت فصحاء العرب قاطبة كانت بوحى إلهي، وليس لأنه من قريش، أو لأنه نشأ في بني سعد فحسب، على الرغم من أن بعض الأحاديث تذكر سبب النشأة مع السبب الإلهي، ولكن النشأة أعطته الفصاحة التي يفاضل أو يوازي بها فصحاء قريش، أما السبب الإلهي بعد النبوة فقد أعطاه الفصاحة التي فاق بها قريشاً والعرب أجمعين، فلسانه الشريف هو نفسه لسان أبيه إسماعيل -عليه السلام- الذي ألهم لسان القرآن الكريم إلهاماً، بعد أن تعلم العربية من قبيلة جرهم القحطانية اليمانية (104)، فأصبح أول من تكلم بالعربية الفصحى العالية، بدليل قوله -صلى الله عليه وسلم-: ((أول من فتق الله لسانه بالعربية المبيّنة إسماعيل)) (105)، و: ((ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاماً)) (106)؛ لذا نجد أحاديثه -صلى الله عليه وسلم- الصحيحة بنصّها تقطر فصاحة وبياناً وتأخذ بمجامع القلوب، وكأنها نبع قرآني آخر، ومن دلائل جوامع فصاحته -صلى الله عليه وسلم- أن الله وهبه أسرار فصاحة اللغة النموذجية الأدبية فضلاً عن أسرار فصاحة لهجات العرب جميعاً، فكان يتكلم باللغة الرسمية المشتركة سليقة وفطرة دون تكلف، كما يتكلم مع القريشيين بلسان قريش الخاص، ومع قبائل العرب بلسانهم ولهجاتهم الخاصة فيفوقهم لساناً وفصاحة تتجاوز لسان فصحاء قبائلهم.

النتائج:

بعد عرض الآراء ومناقشتها والترجيح بينها، توصلت إلى جملة من النتائج المهمة، أوجزها بما يأتي:

1- من أهم غايات بحثي الدفاع عن النبي _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، والدَّوْدُ عنه، ونفي ما نُسِبَ إليه خطأً ممَّا يظنُّه مَنْ نسبته إليه وهماً، أو محبةً، أو تعصباً أنَّ فيه مدحاً ورفعة له، وفاتهم أنَّ ما نسبوه إلى النبي _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ من فصاحة ساد بها قريشاً والعرب قبل النبوة يعدُّ طعنًا به، وقد يستغله الطاعنون في مصدر القرآن الكريم، فيثيرون بسببه شبهاتٍ مفادها أنَّ النبي _صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ لما كان موهوبًا في فنون القول، حتى صار بذلك أفصح قريش والعرب، كان من الطبيعي أن يأتي بكلامٍ عالي الفصاحة، فيُعجز العربَ بنظمه وبيانه وأسلوبه الجديد، فلمَّا أن رأى إعجابهم به وعجزهم عن معارضته ادَّعى أنَّه من الله تعالى، والصحيح أنَّه قبل نزول القرآن الكريم لم يكن أفصح العرب، بل ليس أفصح قريش، وإنَّما كان طبيعيًا بفصاحته لا يختلف عن أقرانه الفصحاء من قريش وغيرهم، فلم يبرزهم بلسانه، أو يمتاز، أو يتفدَّم عليهم به، ولم يصدر منه قولٌ مميِّزٌ، أو نظمٌ مميِّزٌ، أو غيرٌ مميِّزٌ، أو خطبةٌ مميِّزةٌ تتناقضها قريش أو تطيرُ بها ركباًن العرب، فلو كانت فصاحته موهبةً ومنحةً إلهيةً اختصَّها اللهُ بها قبل النبوة لطارت بها قريشٌ فرحًا، حتى تتخذها سببًا للطنن في مصدر القرآن الكريم الذي أخرجهم وأعجزهم بفصاحته؛ لذلك لم تستطع قريش ولا العرب أن يتهموه أنَّه منه؛ لأنَّهم يعرفون قبل النبوة فصاحته المحدودة التي لا تختلف عنهم، ولو اتهموه بأنَّ القرآن من نظمه لُذُّوا وأفحموا بأنَّه عاش بينهم أربعين سنة، ولم يصدر منه قولٌ مميِّزٌ، أو نظمٌ مميِّزٌ، أو غيرٌ مميِّزٌ، أو خطبةٌ مميِّزةٌ تتناقضها قريش أو العرب، ولا سيَّما في مدة الشباب والفتوة وحبِّ الظهور، فكيف بعد الأربعين والنضج والحكمة والرجولة وضعف الشهوات، وعدم وجود موهبة الفصاحة المتميزة من قبلُ يستطيع فجأةً أن يأتي بكلامٍ بهذا المستوى العالي الذي أعجزهم وأدهشهم؟ ولو كان من عنده مع ما يعرفون من إمكانات فصاحته فلماذا لا يستطيعون مجاراته ومعارضته وتحديده والإتيان بسورةٍ من مثله؟! لذا كانت فصاحته العادية قبل النبوة من دلائل نبوته وكمالها، بل كانت حجةً على المشركين والمبطلين، كما كانت فصاحته العالية بعد النبوة من معجزاته وكمال نبوته ودلائلها وحجةً على المشركين والمبطلين، وكانت فصاحته الطبيعية قبل النبوة التي لا تختلف عن فصاحة أقرانه تعدُّ ميزةً كبيرةً له ومن دلائل نبوته، فكما أنَّه لا يقرأ ولا يكتب، ويعدُّ ذلك ميزةً له ومن دلائل نبوته، حتى لا يُنَّهَم أنَّه جاء بالقرآن الكريم من قراءته لأساطير وعلوم الأولين، فكان عدمُ اختلافه في فصاحته عن أقرانه قبل النبوة دليلًا أيضًا على نبوته؛ لذلك كما نفى الله عنه الكتابة والقراءة احتياطًا له من ريبة المبطلين، فقال: **((وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ))** (107)، نفى عنه أيضًا تعلُّم الشعر، وفنون النَّظْمِ، كما نفى عنه أن يتعلَّم احتياطًا له من ريبة المبطلين بقوله تعالى: **((وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ))** (108)، كذلك نفى عنه قبل النبوة الفصاحة المتميزة التي تجذب الأسماع والأنظار احتياطًا له من ريبة المبطلين والمشككين، فكان من رعاية الله له أن جعل فصاحته تناسب المرحلة التي تتطلبها، فكان من متطلبات ما قبل النبوة ونزول القرآن الكريم أن تكون فصاحته لا تختلف عن أقرانه وقومه، فلمَّا أكرمه الله بالنبوة والوحي والقرآن كان من متطلبات هذا الفيض الرباني أن يُلهم فصاحة تليق بما أنزل عليه من كلام الله الذي لا يدانيه في الفصاحة كلام الأسس والجن ولو اجتمعوا؛ لذا أصبح بهية الفصاحة التي ساد بها فصحاء العرب وأحاط بلغتهم وأسننتهم بها، مهياً لما امتنَّ الله عليه بما أنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلمه ما لم يكن يعلم، فقال له: **((وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا))** (109)، فكان بفصاحته آيةً وحجةً معصومًا من الخطأ واللحن: **((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى))** (110)، فساد بفصاحته العرب جميعًا بإلهام ووحى، وليس بنسب وأصل ولا بنشأة.

2- إن نسبة سبب فصاحته _ عليه الصلاة والسلام _ إلى الأصل والنشأة فيه تقييداً لمكانة فصاحته العالية التي جاءت به بوحى وتكريم إلهي، والتي تتجاوز قدرات البشر، ويفقدها قداستها وميزتها ومكانتها العالية المرتبطة بالله والوحي والنبوة وفصاحة القرآن المعجزة، كما فيه جودٌ ونكرانٌ لحقّ الله الذي أعطاه إياها وهبها له بوحى منه، فنسبتها للأسباب الدنيوية يجدد بعطاء الله وكرمه، ويطعن بمعجزة النبوة، وينتقص من مكانة فصاحته التي لا يليق بها إلا عطاء الله والوحي والنبوة والأسباب السماوية.

فحصر أسباب فصاحته العالية لله وللوحي وللنبوة يكفي، فما ذكر من فصاحته وأسبابها وعلوها وتميزها وإعجازها لا يتأتى لبشر مهما حاول استقصاء لغات العرب ودراساتها، ولو أفنى عمره بين قبائل العرب في سبيل ذلك لما استطاع، ولا سيّما تعلم اللغة العربية التي لا يحيط بها إلا نبيّ، كما قال الشافعي(111)، أما أن يكون الرجل فصيحاً بما يمتاز به عن قومه وبلسانهم ولهجتهم فهذا شأنٌ في العرب في ذلك الزمن، لكن أن يمتاز عن العرب وعلى العرب جميعاً بالسننهم ولهجاتهم فذلك لا يكون بمقدرة البشر وأسبابهم، ولا يكون إلا بقدره إلهية، وهنا تتجلى عظمة الله وقدرته في تمييز لسان نبيّه المعظم الذي ارتقى به بعد النبوة من اللسان الفصيح العادي الذي لا يختلف عن قومه وأهله إلى لسان يسود أهله وقبائل العرب جميعاً، لتكون معجزة نبوية خالصة صافية له تلازم منحة النبوة وهباتها، وتوافقها من غير أن نخلطها بالأصل والنشأة والأسباب الدنيوية، فنقل من مكانتها وقيمتها وعلوها؛ لأنّ الأسباب الأخرى متوافرة لأكثر العرب، ولغالبية قريش، أما سبب النبوة والوحي فهو محصورٌ به _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ وحده، فكانت فصاحته من دلائل إعجاز نبوته، فكما أنّ الأنبياء كانت لهم معجزات خاصة بهم أعطى الله _ سبحانه وتعالى _ لنبيه الكريم معجزة القرآن الكريم التي تجلّى فيه كلام الله، ولم يكن له منه إلا النقل والتبليغ، وخصّه بفصاحة اللسان النادرة التي توافق، أو تقارب فصاحة القرآن الكريم، وترتقي عن فصاحته التي عُرف بها قبل النبوة بما لم تعرفه عنه قريش ولا العرب، وبما فاقهم بها جميعاً، ممّا يدلّ دلالة قاطعة على أنّ الكلام القرآني والفصاحة التي فاض بها لسانه بعد النبوة لا يمكن أن تكون إلا من الله _ عزَّ وجلَّ _، ولا يمكن أن تكون إلا معجزة نبوية تؤيد نبوته وتخرص المعاندين والكفرة والمشككين.

3- الدليل على أنّ النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ لم يكن قبل النبوة ونزول القرآن الكريم متميزاً بفصاحة نادرة يسود بها قومه القريشيين، فضلاً عن أن يسود بها العرب أجمعين، وأنّ فصاحته بعد النبوة تختلف كثيراً عن فصاحته قبل النبوة ما يأتي:

أولاً: لو كان يُعرف _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ قبل النبوة بفصاحة متميزة عن أقرانه، أو بفصاحة تلفت الأنظار، أو بخطبة متميزة، أو بغير من فنون القول التي يتقنها العرب، ويتنافسون فيها، ويبلغون بها أعلى مراتب الشرف والصدارة والجاه، أو كان يُعرف بأقوال بليغة فصيحة تتناقفها الركبان قبل نزول القرآن، لذكر عنه ذلك في معظم الكتب والأحاديث التي تناولت شمائله وصفاته ومدحه، ولا سيّما أنّ صفة الفصاحة والتميز بها من أعظم صفات الفخر التي يعتزُّ بها العرب، ولمّا لم يذكر ذلك واحدٌ من أهل السيرة والتاريخ والأحاديث الذين لم يتركوا صغيرة ولا كبيرة، ولا شاردة ولا واردة عن تفاصيل حياته ونشأته إلا ذكروها، فقد دلّ ذلك على أنّ فصاحته قبل نزول القرآن لا تختلف عن فصاحة بني قومه.

ثانياً: عاش _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ أربعين سنة قبل النبوة إنساناً طبيعياً عادياً بين قومه بخالطهم وبخالطونه، ويحدّثهم ويحدّثونه، ويتجر، ويسافر معهم، فلم يظهر على لسانه ما يختلف به في أمور الفصاحة عن أقرانه من قريش والعرب، ثمّ فجأة جاء بكلام نسبه إلى الله تعالى، فأعجز به فصحاء قريش والعرب قاطبة بشعرائهم الفحول وخطبائهم المصاقع، وكذلك تغير فجأة لسانه إلى فصاحة متميزة تفوق ألسنتهم جميعاً، فأدهشهم بما جاء من القرآن، وما ظهر على لسانه من فصاحة تأخذ بمجامع القلوب وتسحر الأسماع، حتى استغربها منه أصحابه المقربون الذين لازموا، وصاحبوه، وعرفوه قبل النبوة وبعدها أمثال أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب _ رضي الله عنهما _، وأهل بيته أمثال علي بن أبي طالب _ رضي الله عنه _ الذين أدهشهم التحول الكبير في فصاحته بعد النبوة عمّا كانوا يعرفونه فيه من فصاحة قبل النبوة، وهذا

دليلٌ واضحٌ على اختلاف فصاحته قبل النبوة عمَّا آلت إليه بعد النبوة؛ لذلك سألوهُ عن مصدر هذه الفصاحة التي يخاطب بها فصحاء العرب فيفوقهم فيها، وأجابهم أنَّها منحةٌ وهبةٌ ووحىٌ من الله، فكانت هذه النقلة النوعية في فصاحته بعد النبوة معجزة نبوية خاصة به تضاف إلى معجزاته النبوية، وقد ميَّزه الله بها، وهبها له بعد النبوة ونزول القرآن الكريم؛ ليكون حجة بها على العرب الذين يتفاخرون بالفصاحة، ويتنافسون فيها، وينقادون لصاحبها؛ لذلك نجزم أنَّ فصاحته التي برَّ بها أقرانه من قريش والعرب أجمعين فسادهم بها لم تكن إلا معجزة نبوية بوحى وتوقيف من الله _ عزَّ وجلَّ _ خلأً لما ذهب إليه جمهور العلماء.

4- لا يختلف النبيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ في فصاحته قبل نزول القرآن وتكليفه بالنبوة عن أقرانه الكثيرين من أقاربه ممَّن ينتسبون لقريش ونشؤوا في بني سعد؟! ثمَّ كيف يمكن أن يفوق بفصاحته رجالاً من قبيلة سعد وشيوخها الذين أخذ الفصاحة منهم خلال سنوات طفولته القليلة؟! إنَّ ذلك لا يصحُّ وُقفاً للقياسات المادية الطبيعية لقدرات البشر، وهذا يعني أنَّ رجالاً من سعد وشيوخهم الذين ساد بهم النبيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ فصحاء العرب بسبب مخالطته إيَّاهم بضع سنوات هم أفصح العرب بلا منازع، ولا يدانيهم فصاحة لا النبيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ ولا غيره، إنَّ قضية أنَّ النبيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ كان أفصح العرب؛ لأنَّه من قريش ونشأ في بني سعد لا أساس لها من الصحة، أما تفسيرنا للروايات والأحاديث التي ذكرت أنَّ سبب فصاحته يعود إلى السبب الإلهي فضلاً عن سبب النشأة في بني سعد، فإنَّه لا يقطع بصحتها، وذكرناها في معرض المحاجة، أو الاستئناس، وعلى افتراض صحتها، فتخريجها عندي بعد دراسة الموضوع من كلِّ جوانبه أنَّ النشأة أعطته الفصاحة التي يفاضل أو يوازي بها فصحاء قريش قبل النبوة، أمَّا السبب الإلهي بعد النبوة فقد أعطاه الفصاحة التي فاق بها قريشاً والعرب أجمعين؛ لذلك لا ننفي عنه _ عليه الصلاة والسلام _ فصاحة موازية لفصاحة أقرانه أو تفوقهم إلى زمن ما قبل نزول القرآن الكريم، لكنَّ ما جعله يمتاز بالفصاحة المطلقة التي أعطته السيادة المطلقة على السنة العرب وعلى قريش وعلى بني سعد بعد نزول القرآن الكريم إنما هي النبوة والإلهام والوحي حصراً.

5- إنَّ صفتي الأصل القرشي والنشأة في بني سعد التي ادَّعى كثيرون أنَّ فصاحته العالية بسببها يشاركما فيه الكثير من قريش كعمه الحمزة رضي الله عنه، بل يوجد من قريش من رضعوا معه من صدر حليلة السعدية نفسها رضي الله عنها كابن عمه أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رضي الله عنه؛ لذا قد يكون أغلب رجال قريش يشاركونه _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ بصفتي الأصل والنشأة، ممَّا يعني أنَّهم يشاركونه بالفصاحة نفسها أو أكثر منها قبل النبوة، أمَّا صفة النبوة والوحي فقد انفرد بها _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _، ولا يوجد في العرب كلاًها من يشاركه بها، فتفرده بالفصاحة النادرة المتميزة بعد النبوة لا تفسير لها عندي إلا الوحي والنبوة؛ لذلك لم يظهر رجلٌ واحدٌ ممَّن يشاركه صفتي الأصل والنشأة بعد النبوة والإسلام يشابهه، أو يدانيه بفصاحته.

6- إنَّ الحكم بأنَّ النبيُّ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ كان أفصح العرب يتطلب من أصحاب الحكم مراجعة كلام فصحاء العرب جميعاً بشعرائهم وخطبائهم وصغارهم وشيوخهم في مدنهم وقراهم وباديهم ومناطقهم المقطوعة، وهذا ما لا يقدر عليه أحدٌ في ذلك الزمان، ولا توجد عند العرب جميعاً آليات وإمكانات للقيام بمسابقة عادلة لمعرفة أفصح العرب وُقفاً لشروط وضوابط يضعونها لهذا الغرض تضمن موافقة الجميع على نتائج التحكيم، فلما استحال ذلك عليهم علمنا أنَّ الحكم بفصاحة رجلٍ على العرب جميعاً يتطلب أمرًا خارجاً عن قدرة البشر، وصلته مرتبطة بالخالق العليم المطلع على السنة العرب وإمكاناتهم، وأيُّ عربيٍّ يدَّعي سيادته على فصحاء العرب سيجد ألقاً من فصحاء العرب يعارضونه ويتحدونه؛ لذلك لن يُسَلِّمَ العربُ بهذا الحكم إلا لمن كان له صلة بخالقهم، ولا تكون هذه الصلة إلا بوحى إلهي عن طريق النبوة، ولا يوجد عربيٌّ نبويٌّ يوحى إليه غير محمدٍ _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ الذي أكرمه الله بالنبوة ونزول القرآن المعجز، فحاز بفضلها على سيادة الفصاحة، وبهما علمنا أنَّه صار أفصح العرب قاطبة.

7- إنَّ أحاديث نسبة فصاحة النبي _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ إلى النسب أو إلى النشأة إمَّا موضوعَةٌ، أو ضعيفَةٌ، أو مختلفٌ في صحتها، ولا ترتقي بأيِّ حال من الأحوال إلى قوة سند أحاديث الوحي والإلهام وصحتها، إذن، لسانه الشريف _ عليه الصلاة والسلام _ حاز الفصاحة العالية بهيبة ربانية خاصة ووحى إلهي بعد النبوة، وليس لانتسابه إلى قريش، أو إلى نشأته في بني سعد، على أننا لا ننكر أنَّ لنشأته في بني سعد أثرًا كبيرًا في فصاحته قبل البعثة والنبوة، لكنَّها فصاحة لا تصل به بأيِّ حالٍ من الأحوال إلى أن يتميز بها على قومه جميعًا، فضلًا عن أن يسود بها العرب قاطبة، لكن بعد أن اختاره الله واصطفاه لرسالته ونبوته وأنزل كلامه المعجز بفصاحته وبلاغته ونظمه على قلبه الشريف، أكرمه بالفصاحة العالية وحيًا وإلهامًا، لتكون فصاحته معجزة نبوية تجذبُ السامعين ممَّن يعرفونه أو لا يعرفونه إلى ما استجدَّ فيه من أمر النبوة، فجعل لسانه معجزًا بفصاحته في أمةٍ تمتاز بالفصاحة والبيان؛ ليتميَّز عليهم بلسانه كما تميَّز بنبوته واصطفائه عليهم، ولتكون فصاحته موافقة أو مقاربة لفصاحة القرآن الكريم.

8- لم أجد فيما بحثت فيه من كتبٍ وأحاديثٍ ومراجعٍ ومصادرٍ نصًّا واحدًا يثبت علو فصاحة النبي _ صلى الله عليه وسلم _ وتميُّزه بها على أقرانه قبل نزول القرآن الكريم، وكلُّ ما ورد في هذا الخصوص إنَّما كان بعد نزول القرآن الكريم، إذ كان _ صلى الله عليه وسلم _ يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون، يفوقهم فصاحة في لسانهم، وهذا لا يتحقق لرجل من العرب، مهما طاف في بلاد العرب، وسعى لتقصي السننهم ولهجاتهم، ولما لم يثبت أنَّ النبي _ صلى الله عليه وسلم _ طاف بلاد العرب بحثًا عن اللغة والسنة العرب، علمنا يقينًا أنَّ الله _ عزَّ وجلَّ _ قد أعلمه وحيًا من لغات العرب وأسننهم ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، وجمع فيه من المعارف ما تفرَّق، ولم يوجد في قاصي العرب ودانيه، وكان أصحابه _ رضي الله عنهم _ ومن يقدُّ عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه، فيوضحه لهم.

9- لم تكن فصاحته _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ المتميزة متعلقة بحسن الألفاظ، واختيار الكلمات، وجودة النظم، وبيان الأسلوب، وروعته فحسب، بل سلَّمه الله من الصفات التي يعدونها في عيوب المنطق خلقًا، كالتمتمة، والفاقة، والرتة، ونحوها، أو تخلفًا، كالتنطع، والتمطوق، والتفهيق، والتشوق، فضلًا عن أنَّ الله ميزه بحسن الصوت، وهو تمامها وجليتها، فكان منطقه _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ على أنَّه ما يتفق في طبيعة اللغة، ويتهيأ لها إحكام الضبط وإتقان الأداء: لفظٌ مشبَّعٌ، ولسانٌ بليغٌ، وتجويد فحْمٌ، ومنطقٌ عذبٌ، وفصاحةٌ متأدبةٌ، ونظمٌ متساوٍ، وطبعٌ يجمع ذلك كلَّه، مع تثبُّبٍ، وتحفُّظٍ، وتبيينٍ، وترسُّلٍ وترتيلٍ؛ لذا كان الرسول _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ ذا جاذبية خاصة لمستمعيه، كلامًا، وأسرعهم أداءً، وأحلام منطقيًا. وهذا له تأثيرٌ كبيرٌ في جذب الأذان، وافتتاح القلوب، ورهافة العقول، لذا كان الناس يسعون إلى مصاحبته أطول الأوقات، استنناسًا بحديثه، وإفادته من هديه.

ونستطيع أن نوجز سرَّ فصاحته المتكاملة بأنَّها تشكَّلت من أركانٍ أربعة:

— هيئة النطق العربي الأصيل، فسلم لسانه من العيوب الخلقية والنطقية، فكان أروع الناس نطقًا وصوتًا وتحقيقًا لمخارج الحروف وصفاتها.

— روعة تركيب العبارات وأصالة اللفظ وجمال التعبير.

— عظم المعنى وتساميه وشرفه وحكمته ودلالته.

— امتاز بجوامع الكلم ومفاتيحه، فكان يتكلم بالقول الموجز القليل اللفظ الكثير المعاني.

10- ليس من السهل أن يدَّعي رجلٌ أنَّه أفصح قومه، فضلًا عن أن يدَّعي أنَّه أفصح العرب في زمن كانت فصاحة اللسان وبضاعة اللغة أعظم ما يتنافس فيه العرب، وكانت من أعظم أسباب السيادة والمجد والفخر والغنى، ولو قالها رجلٌ اشتهر بالشعر ونظمه، أو بالخطابة وفنونها لوجد الكثيرين يعارضونه ويردونه ويتحدونه؛ لذلك لم يجروا أحدًا من العرب

مهما كانت فصاحته وشاعريته وخطابته أن يقولها، فكيف يدعى ذلك رجلاً لم يُعرف بأيّ فن من فنون القول والفصاحة؟ لو ادّعى ذلك لعرض نفسه _حاشاه_ للسخرية والاستهزاء، ثمّ من من العرب يستطيع أن يجزم بأنّه أفصح العرب، ويعطي مثل هذا الحكم الخطير من غير أن يكون له مفردات استقصاء فصحاء العرب واختبارهم؟! لذلك كلّهُ أجزم أنّ قوله _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ لو قاله بأنّه: (أفصح العرب) لا يكون إلا عن وحي وإخبار عن ربّ العالمين، أي: إنّه قالها بعد النبوة وبعد الوحي، وبعد أن علم من الله بما فتق به لسانه من فصاحة أنّه أفصح العرب؛ لذلك قالها واثقاً مطمئناً متأكدًا من قوله، ويعلم أنّه لن يجد من يردّد عليه قوله، أو يكذّبه _حاشاه_، وإن لم يقلها فقد عرفها أصحابه، ومن سمع كلامه من العرب الفصحاء، وأهل اللغة والاختصاص استدلالاً من قوله بعد النبوة: (أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ) ، ولما رأوا من بيانه وفصاحته، ولما وهبه الله من جاذبية خاصة لمستمعيه، حروفاً وكلماتٍ ونظماً، وسرعةً في الأداء، وحلاوةً في المنطق.

11- قد وهب الله بالوحي نبيّه الكريم فصاحةً متميزةً ساد بها فصحاء العرب؛ لأسبابٍ منها أن يكون مهياً لفصاحة القرآن المنزل عليه، أو لتوافق فصاحته فصاحة القرآن الكريم، أو تقاربها؛ لأنّه أوتي القرآن الكريم الذي هو منتهى الفصاحة ودستورها ومرجعها، ثم أوتي مثل القرآن الكريم معه، بقوله: (أَلَا إِنِّي أُوتِيْتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ) (112)؛ فمن أوتي القرآن المُعْجَزَ بفصاحته وبيانه ونظمه ولغته كان آيةً ومعجزةً في الفصاحة، فما بالك بمن أوتي مثله معه، وأوتي عصمة اللسان، ورزق العلم من شديد القوى، بقوله _جَلَّ وَعَلَا_: ((وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ)) (113)! وجمعت له هذه الفصاحة التي تليق بكلام الله المُنَزَّلَ عليه؛ ليكون أعرف الناس وأفصحهم بلغته وبيانه وتبليغه للناس تحقيقاً ومصادقاً لقوله تعالى: ((بِأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ)) (114)، وقوله تعالى: ((وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)) (115)؛ لأنّ من لوازم التبليغ والتبيين والنبوة أن يكون _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ أفصح الناس وأعرفهم بكلام الله المنزل بلسانه العربي المبين، ولا يصحّ مع أمر النبوة والتبليغ والتبيين أن يكون في العرب من هو أفصح، أو أبلغ، أو أفهم منه بلغة القرآن الكريم، أو بكلام العرب ولغتهم الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم؛ لأنّه لو كان ذلك للجا إليه الناس في تفسير كلام الله وبيانه، ولتركوا سؤال النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_، وهذا فيه قدحٌ وطعنٌ في نبوته _حاشاه_؛ لذلك لم يرد نصٌّ واحدٌ يبيّن أنّ النبي _صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ_ أشكل عليه لفظاً في القرآن الكريم، كما أشكل على فصحاء قريش وساداتهم، كعمر بن الخطاب، وعبدالله بن العباس _رضي الله عنهم_، وهم الفصاحة في ذروة السنام والغارب، وهم من صميم قريش، وكانوا هم والصحابة الكرام إذا طرأ عليهم الإشكال في لغة القرآن الكريم، أو في معنى من معانيه في زمن النبي _صلى الله عليه وسلم_، هرعوا إليه؛ ليبينه ويفسره لهم، ولم يسألوا في زمنه غيره؛ لإيمانهم أنّه أفصح العرب، وأعرفهم بلغة العرب بالنبوة والوحي، فلو لم يرزقه الله الفصاحة العالية فكيف سيبليغ كتاب الله، ويبينه للناس، ويفسر ما يُشكّل عليهم فيه؟

12- من الأسباب التي وهب الله بسببها نبيّه _صلى الله عليه وسلم_ فصاحةً متميزةً ساد بها العرب بعد نزول القرآن الكريم، حتى يُميّزه عن العرب جميعاً بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ يفوق ألسنة العرب الذين يدينون بالطاعة والاحترام لأصحاب الألسنة والفصاحة؛ لأنّه كانت من شروط السيادة والكمال عند العرب في الجاهلية أن يكون الرجل فصيحاً بليغاً، فلا ينال السيادة على العرب إلاّ من فاقهم فصاحةً وبيانا، فكان من لوازم خيريّته _صلى الله عليه وسلم_، وسيادته على العرب، وانقيادهم له أن يكون أفصحهم لساناً، ولا يكون ذلك لرجل بعد سن الأربعين إلاّ بمنحة إلهية، ولا سيماً أنّه لم يكن قبل النبوة يملك موهبة الفصاحة والإبداع في اللغة وفنون القول كالشعر والخطابة.

13- تكلم _صلى الله عليه وسلم_ مع العرب بلهجاتهم وألسنتهم؛ ليبين لهم أنّه رسول الله إليهم جميعاً، وأنّ الله أعطاه بالنبوة لساناً فصيحاً يفوق فصاحتهم، ليكون شاهداً ودليلاً على نبوته، إذ لا يمكن لعربيٍّ أن يتكلم بلهجات القبائل وألسنتهم، ولا سيماً التي تخالف صفاته اللّهجية التي نشأ وتربّى عليها، كالهمز، والتسهيل، والإمالة، والتفخيم، وغيرها، فيفوقهم بها فصاحةً إلاّ إذا كان مؤيداً من الله؛ لأنّ المتكلم تغلب عليه سليقته وطبعه، وما تعودّه من اللسان الذي نشأ وتربّى عليه، ومن

الصعب جداً أن يخرج عن طبيعته إلى صفات لسانية أخرى، فيتكلم بما يوازي فصاحتهم، فضلاً عن أن يتفوق بها عليهم، فلا يتأتى ذلك إلا لنبيٍّ، وقد أجاد -- صلى الله عليه وسلم -- في توظيف هذه المنحة الربانية أيما إجادة؛ فتحدّث لكلّ قبيلة بلسانهم؛ ليكسب ودّهم، ويبين لهم أنّه لهم جميعاً، وأنّ الله تعالى وهبه بالنبوة والوحي فصاحةً بلسانهم تُعجز فصحاءهم، كما أعجز القرآن الكريم الذي نزل بلغة العرب الفصحى المشتركة التي حوت أفصح لغات العرب فصحاء العرب جميعاً، فعجزوا أن يأتوا بسورة من مثله.

- 1 _ المستدرک علی الصحیحین، الحاکم، برقم (4274): 10/3، وقال فيه: حديث صحيح الإسناد.
- 2 _ الشمال المعديّة، للترمذي: 184، رقم الحديث: (226).
- 3 _ صحيح مسلم، رقم الحديث: (523)، وفي صحيح البخاري، رقم الحديث: (7013) بلفظ: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)).
- 4 _ ينظر: الديباج على مسلم: 5/57.
- 5 _ ينظر: مقاييس اللغة والصحاح ولسان العرب، مادة: (فصح)، ومفهوم الفصاحة، د. محمد جابر الفياض: 264، والفصاحة في العربية، المفاهيم والأصول، محمد كريم الكوازي: 11-17.
- 6 _ إجاز القرآن: 194.
- 7 _ إجاز القرآن: 194.
- 8 _ بيان إجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في إجاز القرآن): 23-24.
- 9 _ ينظر: دلائل الإعجاز، عبدالقاهر الجرجاني: 43، 49، 400، والمزهر في علوم اللغة، للسيوطي: 1/184-187، والفصاحة في العربية، المفاهيم والأصول: محمد كريم الكوازي: 34-35، ومعايير الفصاحة عند القاضي عبدالجبار وعبد القاهر الجرجاني، دراسة مقارنة، تفاحة بعطوط (رسالة ماجستير): 98-100.
- 10 _ ينظر: طبقات ابن سعد: 1/112، ودلائل النبوة لأبي نعيم: 1/118، والسيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري: 1/105، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، أ. د. مهدي رزق الله أحمد: 96.
- 11 _ ينظر: المدارس النحوية، د. خديجة الحديثي: 76، والفصحى لغة القرآن، أنور الجندي: 23، ولغة القرآن، مختار الغوث: ص 7، ولغة القرآن، لغة العرب المختارة، د. محمد رؤاس قلعه جي: 42، 66، وفقه اللغة العربية في ضوء الدرس اللغوي الحديث، د. حسام النعيمي: 13.
- 12 - اللخاينية: وهي حذف ألف (ما شاء الله) يقولون: (مشالله) وهي في الشحر وعمان واليمن. ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا: 48.
- 13 - الكشكشة: وهي إلحاق كاف الخطاب المؤنث شيئاً وبعضهم يجعلها مكان الكاف، فيقولون في (عليك): (عليكش) أو (عليش). وتنسب أيضاً لربيعة وأسد. ينظر: الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس: 56، ومعجم متن اللغة، أحمد رضا: 48.
- 14 - الكسكسة: وهي كالكشكشة إلا أن شينها سين، وبكرٌ من ربيعة. ينظر: الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس: 57، ومعجم متن اللغة، أحمد رضا: 48.
- 15 - الغمغمة: وهي إخفاء بعض الحروف في الكلام فلا تكاد تظهر، ونُسبت أيضاً إلى قریش. ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا: 48.
- 16 - الطمطمانية: أو (الطنطنانية): وهي قلب لام التعريف ميماً كامصيام في: الصيام. ينظر: معجم متن اللغة، أحمد رضا: 48_49.

- 17 _ البيان والتبيين: 1 / 492، وخزانة الأدب، البغدادي: 11/492.
- 18 _ نحائز: جمع نحيزة، الطبيعة، يقال: هو كريم النحيزة، وسلائق: جمع سليفة، الطبيعة أيضًا.
- 19 _ العنعة التي تُذكر عن تميم، فقلبها الهمزة في بعض كلامهم عيّنًا، يقولون سمعت عن فلانًا قال كذا، يريدون: أن. ينظر: الصاحبى في فقه اللغة، لابن فارس: 56، وجمهرة أشعار العرب، أبو زيد القرشي: 104.
- 20 _ عجرية قيس: وتنسب إلى ضبة أيضًا، وهذه اللهجة قليلة الدوران على الألسنة، ولم يشرحها اللغويون غير أنه ورد في المعجمات (العجرفة والعجرفية) جفوة في الكلام وتقرع، ولعلها طلب الغريب من الوحشي من الكلام.
- 21 _ الكشكشة التي في أسد، إنهم يبدلون الكاف شيئًا، يقولون: عَلَيْشَ بمعنى عليك أو يصلون بالكاف شيئًا فيقولون: عليكش. ينظر: الصاحبى في فقه اللغة، لابن فارس: 56، وجمهرة أشعار العرب، لأبي زيد القرشي: 104.
- 22 _ والكشكشة في ربيعة، هي أن يصلوا بالكاف شيئًا، فيقولون: عَلَيْكِسْ. ينظر: الصاحبى في فقه اللغة: 57.
- 23 _ الصاحبى في فقه اللغة، لابن فارس: 55_56.
- 24 _ خلاصة البدر المنير لابن الملقن: 2/251، والتلخيص الحبير، ابن حجر العسقلاني: 4/1298، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي: 6/324، و المزهري في علوم اللغة: 1/209، والأسرار المرفوعة، ملا علي قاري: 137. قيل: لا أصل له، أو بأصله موضوع. وقد درس الشاعر حسن عبد المجيد عباس هذا الحديث وتخريجه، ونشره في بحث بعنوان (حديث الرسول _ صلى الله عليه و سلم_ : (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش): سنده وروايته ورأي العلماء فيه _ دلالاته)، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة كلية الآداب، المجلد 2013، العدد 18 (30 سبتمبر/أيلول 2013): 157_174. وخلص إلى ما يأتي: (يعدُّ هذا الحديث المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأحاديث المشهورة التي كثر تداولها بين طبقات الناس المختلفة علماء ومفكرين وعوام، محدثين، ولغويين، وأدباء، ومفسرين، وعلماء قرآن، وغيرهم. وقد تعددت رواياته بالزيادة تارة و بالانقاص تارة أخرى وبتغيير اللفظ في عدد منها، وهي كلها مرسلّة لا يُعتمدُ بروايتها وسندها؛ لذلك لم تذكرها سوى كتب غريب الحديث، على الرغم من تعدد آراء العلماء فيه بين منكر له، وبين مستأنس به، وبين من أنكر سنده وتقبل معناه. وقد خلص البحث بعد بسط القول في روايته وسنده ورأي العلماء فيه إلى أنه بوضعه الحالي يبعث على الريبة والشك وربما زيد عليه لغايات يطلبها المتزيدون، وإن صح هذا الحديث فيمكن أن يكون موجزًا في أوله وقد أطلقه الرسول صلى الله عليه وسلم في حادثة ما على الرغم من أن فصاحة رسول الله ليست بحاجة إلى دليل فهو سيد البلغاء والناطقين).
- 25 _ خلاصة البدر المنير لابن الملقن: 2/251، والأحكام الكبير، لابن كثير: 3/95، المقاصد الحسنة، للسخاوي، 122، والأسرار المرفوعة، ملا علي قاري: 136، وأحكام الجنائز، للألباني: 229. اتفق العلماء على أن معناه صحيح، لكن اختلفوا في حكمه، فمنهم من قال: لا أصل له، ومنهم من قال: ضعيف أو موضوع، ومنهم قال: غريب كُله.
- 26 _ للمزيد يراجع كتابنا: نزول القرآن الكريم بلغة قريش بين الحقيقة والوهم، أ.د. عمر علي الدليمي، دار النور المبين للنشر والتوزيع، الأردن، 2022م.
- 27 _ قال _ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ _ : ((أَعْطَيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ)). صحيح مسلم، رقم الحديث: (523)، وفي صحيح البخاري، رقم الحديث: (7013) بلفظ: ((بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ)).
- 28 _ فضائل القرآن لابن كثير: 50.
- 29 _ الحروف، أبو نصر الفارابي: 147، وينظر: المزهري في علوم اللغة: 1/211.
- 30 _ تفسير الطبري: 1/23، وفضائل القرآن لأبي عبيد: 67، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 1/135.
- 31 _ العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني: 1/89.

- 32 _ الصحابي في فقه اللغة، لابن فارس: 61، وينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني: 1/89.
- 33 _ البيان والتبيين، الجاحظ: 1/104.
- 34 _ العين: 1/169، مادة (قعن).
- 35 _ درة الغواص في أوهام الخواص للحريري: 1/174.
- 36 _ لسان العرب: 4/51، مادة: (برر).
- 37 _ بلوغ الأرب في لهجات العرب، د. محمد متولي منصور: 28، والسيرة النبوية، لابن هشام: 1 / 125، 2 / 69، والطبقات الكبرى لابن سعد: 1 / 75، وفتوح البلدان، البلاذري: 1 / 67، وموسوعة التاريخ الإسلامي، د. أحمد جاب الله شلبي: 0 126
- 38 _ قریش/1_4.
- 39 _ ينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي: 1/140، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب، ابن هشام الأنصاري: 118.
- 40 _ ينظر: الصحاح للجوهري، مادة (باد)، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب: 117، وتاج العروس، مادة (باد).
- 41 _ قال الخطيب القزويني: (إنَّ الأصل في الاستثناء أن يكون متصلًا، فإذا نطق المتكلم بـ (إلا) أو نحوها توهم السامع قبل أن ينطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها مخرج مما قبلها فيكون شيء من صفة الذم ثابتًا، وهذا ذمٌّ، فإذا أنت بعدها صفة مدح تأكد المدح؛ لكونه مدحًا على مدح، وإن كان فيه نوع من الخلافة، والثاني: أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى له كقول النبي _ صلى الله عليه وسلم _ : (أنا أفصح العرب بيد أني من قریش) . الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني: 346، وينظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري: 7/101.
- 42 _ ينظر: شرح السنة، للإمام البغوي: 4/202، ومغني اللبيب عن كتب الأعراب: 118.
- 43 _ ينظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، العربية الفصحى: 656 / 8.
- 44 _ مجالس ثعلب: ص 2.
- 45 _ ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعراب: 118.
- 46 _ الجامع الصغير، السيوطي: (٢٦٨١)، وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين المنقي الهندي: 11/404، رقم الحديث: (31884)، وحكم عليه الألباني في ضعيف الجامع: (1303)، وفي السلسلة الضعيفة: (1689) بأنه موضوع.
- 47 _ أقصد حديثي: (أنا أفصح العرب بيد أني من قریش وإنني نشأت في بني سعد) ، أو (أنا أفصح من نطق بالضاد).
- 48 _ ينظر: زاد المعاد لابن القيم الجوزية: 1/83.
- 49 _ ينظر: صحيح البخاري، رقم الحديث: (3568)، وصحيح مسلم، رقم الحديث: (2493).
- 50 _ عبقرية محمد، العقاد: 22.
- 51 _ ربيع الأبرار للزمخشري: 5/201.
- 52 _ مريم/97.
- 53 _ شعب الإيمان، للبيهقي: 3/33، رقم الحديث: (1363). وفيه: (قَالَ أَبُو عُبَيْدٍ: قَوْلُهُ: قَوَاعِدُهَا _ يَعْنِي قَوَاعِدَ السَّحَابِ _ وَهِيَ أَصُولُهَا الْمُعْتَرِضَةُ فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، وَأَمَّا النَّوَاسِقُ فَفُرُوعُهَا الْمُسْتَطِيلَةُ فِي السَّمَاءِ إِلَى وَسَطِ السَّمَاءِ وَإِلَى الْأَفْقِ الْأَخْرَ، وَالْجَوْنُ الْأَسْوَدُ وَقَوْلُهُ: رَحَاهَا فَرَحَاهَا اسْتِدَارَةُ السَّحَابِ فِي السَّمَاءِ، وَالْحَفْوُ هُوَ الْإِعْتِرَاضُ مِنَ الْبَرْقَةِ فِي

- تَوَاجِي الغيم، وَالْوَمِيضُ أَنْ يَلْمَعَ قَلِيلًا، ثُمَّ يَسْكُنَ وَلَيْسَ لَهُ اعْتِرَاضٌ، وَأَمَّا الَّذِي يُشْتَقُّ شَقًّا فَاسْتِطَالَتْهُ فِي الْجَوِّ إِلَى وَسْطِ السَّمَاءِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَأْخُذَ يَمِينًا وَشِمَالًا وَالْحَيَا هُوَ الْمَطَرُ الْأَوَّاسُ الْعَزِيزُ، وَكَنَزَ الْعَمَالُ فِي سَنَنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، عِلَاءُ الدِّينِ الْمَتَقِيِّ الْهِنْدِيِّ: 6/174، رقم الحديث: (15247).
- 54 _ شعب الإيمان، للبيهقي: 3/33، رقم الحديث: (1363)، وَكَنَزَ الْعَمَالُ فِي سَنَنِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، عِلَاءُ الدِّينِ الْمَتَقِيِّ الْهِنْدِيِّ: 6/174، رقم الحديث: (15247).
- 55 _ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، عِلَاءُ الدِّينِ الْمَتَقِيِّ الْهِنْدِيِّ: 6/174، رقم الحديث: (15247)، وَجَامِعُ الْأَحَادِيثِ، جَلَالُ الدِّينِ السِّيُوطِيِّ: 34/202، رقم الحديث: (37184).
- 56 _ المائدة/67.
- 57 _ النحل/44.
- 58 _ عبس/31.
- 59 _ وفاكهة وأبأ: يعني الكأ والمرعى، وقال الحسن: هو الحشيش، وما تأكله الدواب ولا تأكله الناس، قنادة: أما الفاكهة فلكم، وأما الأب فلأنعامكم، أبو رزين: النبات، يدل عليه ما روى ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما: قال: ما أنبتت الأرض مما تأكل الناس والأنعام. علي بن أبي طلحة: الأب: الثمار الرطبة. الضحاك: هو التبن. عكرمة: الفاكهة: ما يأكل الناس، والأب: ما يأكل الدواب. الكشف والبيان للثعلبي النيسابوري: 10/133.
- 60 _ ينظر: شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي: 136.
- 61 _ الكلالة: من مات وليس له والد ولا ولد. وهو الذي عليه الجمهور. ينظر: شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي: 139، والبحر المحيط لابي حيان الأندلسي: 3/196.
- 62 _ شرح رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي: 136، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي: 1/150.
- 63 _ الفاضل للمبرد: 10، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي: 1/149.
- 64 _ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: 199.
- 65 _ ينظر: الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام للسهيلى: 1/3، والسيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، أ. د. مهدي رزق الله أحمد: 125، ومحمد صلى الله عليه وسلم كأنك تراه، د. عائض القرني: 13.
- 66 _ السيرة النبوية، لابن هشام: 2/38، والرحيق المختوم، للمباركفوري: 79.
- 67 _ صحيح مسلم، رقم الحديث: (523)، وفي صحيح البخاري، رقم الحديث: (7013) بلفظ: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ).
- 68 _ صحيح البخاري، رقم الحديث: (6998).
- 69 _ فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر: 13/247.
- 70 _ صحيح البخاري، رقم الحديث: (7013) بلفظ: (بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ).
- 71 _ فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني: 13/525.
- 72 _ سنن أبي داود: (4604)، ونيل الأوطار للشوكاني: 8/182، الإيمان لابن تيمية، الألباني: 37، صحيح.
- 73 _ النجم/3-5.
- 74 _ مسند الإمام أحمد: (6981).
- 75 _ العنكبوت/48.
- 76 _ العلق/ 1-4.

- 77 _ صحيح البخاري: 4953 و6982.
- 78 _ فتح الباري: 1/42.
- 79 _ قال الزرقاني: (إذا استعرضنا حجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أمّيته صلى الله عليه وسلم قطعية يقينية. وأن أدلة كونه كتب وخط بيمينه ظنية غير يقينية، ولم يدع أحد أنها قطعية يقينية. ثم إن التعارض ظاهر فيما بين هذه وتلك. غير أنه تعارض ظاهري يمكن دفعه بأن نحمل أدلة الأمية على أولى حالاته صلى الله عليه وسلم وأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته، وذلك جمعًا بين الأدلة. ولا ريب أن الجمع بينها أهدى سبيلًا من إعمال البعض وإهمال البعض ما دام في كلٍ منها قوة الاستدلال، وما دام الجمع ممكنًا على أية حال. أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذٍ في قبول القطعي ورد الظني؛ لأن الأول أقوى من الثاني ((وإنَّ الظنَّ لا يُغني عن الحقِّ شيئاً)) يونس/36. هذا هو الميزان الصحيح لدفع التعارض والترجيح فاحكم به عند الاختلاف والاشتباه ((ولا تتبّع الهوى فيضلك عن سبيل الله)) ص/26). مناهل العرفان في علوم القرآن: 1/367.
- 80 _ ونضيف إلى هذه الصفات: (وأنه لم يكن متميزًا بفصاحته عن أقرانه قبل النبوة).
- 81 _ العقد الفريد، لابن عبد ربّه: 2/35.
- 82 _ النساء/113.
- 83 _ النجم/3-5.
- 84 _ ينظر: الرحيق المختوم: 478.
- 85 _ الفائق في غريب الحديث: 1/11.
- 86 _ جامع الأحاديث، للسيوطي: 2/88، رقم الحديث: (960)، وذكره السيوطي في الخصائص نقلًا عن ابن عساكر: 108 / 1.
- 87 _ روي الحديث بمعناه عن عبدالله بن عباس _ رضي الله عنهما _ قال: (أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم). اللألي المنثورة، للزركشي: ١٠٧ (في إسناده ضعيف ومجهول)، والمقاصد الحسنة، للسخاوي: ١/١٦٤، باختلاف يسير، والكامل في الضعفاء، لابن عدي: ٥/٢٤١، بنحوه.
- 88 _ النهاية في غريب الحديث والأثر: 1/3.
- 89 _ ص/68.
- 90 _ البيان والتبيين: 2/10-20.
- 91 _ شعب الإيمان: 2/162.
- 92 _ الشفا بتعريف حقوق المصطفى: 48.
- 93 _ ينظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري: 1/11.
- 94 _ حتى إن راوي الحديث عبد الله بن عتيك _ رضي الله عنه _ قال: (والله إنَّها لكلمة ما سمعناها من أحد من العرب قبل رسول الله _ صلى الله عليه وسلم _). مسند الإمام أحمد: (16414).
- 95 _ صحيح مسلم: (1775).
- 96 _ صحيح البخاري: (باب لا يُدع المؤمن من جحر مرتين)، وصحيح مسلم: (1775).
- 97 _ المزهر في علوم اللغة: 1/165.
- 98 _ إجاز القرآن والبلاغة النبوية: 283-284.

- 99 - ينظر: الرسالة : 1/42.
- 100 _ إجاز القرآن والبلاغة النبوية: 285.
- 101 _ المقاصد الحسنة، السخاوي (ت ٩٠٢هـ): ٤٩ ، وجامع الأحاديث، للسيوطي: 2/88، رقم الحديث: (959)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين المتقي الهندي: 7/214، رقم الحديث: (18673)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (2185).
- 102 _ جامع الأحاديث، للسيوطي: 2/88، رقم الحديث: (960)، وذكره السيوطي في الخصائص نقلًا عن ابن عساكر: 108 / 1.
- 103 _ المزهر في علوم اللغة: 1/34.
- 104 _ صحيح البخاري، رقم الحديث: (3364).
- 105 _ طبقات فحول الشعراء: 1/9، والبداية والنهاية لابن كثير: 1/221، والجامع الصغير للسيوطي برقم (2837)، وصحيح الجامع، رقم الحديث: (2581)، قال الألباني: حديث صحيح.
- 106 _ المستدرک على الصحيحين للحاكم، برقم (3641): 4/476، وقال: صَحِيحُ الإسْنَادِ، وشعب الإيمان للبيهقي: 2/702، والبحر المحيط في أصول الفقه، بدر الدين الزركشي: 1/398، والجامع الصغير للسيوطي برقم (1581).
- 107 _ العنكبوت/48.
- 108 _ يس/69.
- 109 _ النساء/113.
- 110 _ النجم/3-5.
- 111 - ينظر: الرسالة : 1/42.
- 112 _ سنن أبي داود: (4604)، ونيل الأوطار للشوكاني: 8/182، الإيمان لابن تيمية، الألباني: 37، صحيح.
- 113 _ النجم/3-5.
- 114 _ المائدة/67.
- 115 _ النحل/44.

فهرست المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم.
- 1- ابن الأثيري، أبو بكر محمد بن قاسم، تحقيق: د. محيي الدين عبدالرحمن، إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عزَّ وجلَّ، المجمع العلمي، دمشق، 1391هـ _ 1971م.
- 2- ابن الملقن أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت804هـ)، خلاصة البدر المنير، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1410هـ _ 1989م.
- 3- ابن تيمية، الإيمان، تحقيق: خرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي -- بيروت، الطبعة: الرابعة، 1413 هـ - 1993م.

- 4- ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد (ت852هـ)، المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، تنسيق: د. سعد بن ناصر بن عبد العزيز الشثري، دار العاصمة، دار الغيث -- السعودية، الطبعة: الأولى، 1419هـ.
- 5- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي (773_852هـ)، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة _ بيروت، 1379هـ.
- 6- ابن رشيقي القيرواني، أبو علي الحسن الأزدي (390_456هـ)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1401هـ _ 1981م.
- 7- ابن عبد ربّه الأندلسي، أبو عمر أحمد بن محمد (246_328هـ)، العقد الفريد، تحقيق: الدكتور محمد التونجي، دار صادر _ بيروت، ط2، 1430هـ _ 2009م.
- 8- ابن فارس أبو الحسين أحمد بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1399هـ _ 1979م.
- 9- ابن فارس، أبي الحسين أحمد زكريا القزويني الرازي اللغوي (ت395هـ)، الصحابي في فقه اللغة، تحقيق عمر فاروق الطباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1414هـ _ 1993م.
- 10- ابن قيم الجوزية (691_751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبدالقادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1425هـ _ 2005م.
- 11- ابن منظور، لسان العرب، محمد بن مكرم (ت711هـ) تحقيق: لجنة من العاملين بدار المعارف، دار المعارف، مصر (د.ت).
- 12- ابن هشام، أبي محمد عبد الملك المعافري (ت213هـ)، السيرة النبوية، قدم له وعلق عليه وضبطه: طه عبدالرؤوف، مطبوعات مكتبة ومطبعة عباس عبدالسلام شقرون، شارع ببيرس بالحمزاوي، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة.
- 13- ابن هشام، جمال الدين الأنصاري (ت761هـ)، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق: د. مازن المبارك، ومحمد علي حمدالله، راجعه سعيد الأفغاني، دار الفكر، ط1، 1426هـ _ 2005م.
- 14- أبو إسحاق الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري، الكشف والبيان، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت _ لبنان، ط1، 1422هـ _ 2002م.
- 15- أبو العباس ثعلب (291هـ)، مجالس ثعلب، تحقيق: عبدالسلام هارون، دار المعارف، النشرة الثالثة، القاهرة، 1969م.
- 16- أبو الفداء ابن كثير، إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (700_774هـ)، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 1420هـ _ 1999م.
- 17- أبو الفداء ابن كثير، عماد الدين إسماعيل بن عمر بن ذو بن درع القرشي البصري ثم الدمشقي، (ت77هـ)، البداية والنهاية، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1408هـ _ 1988م.
- 18- أبو الفضل العراقي (ت806هـ)، المغني عن حمل الأسفار، تحقيق: أشرف عبد المقصود، مكتبة طبرية، الرياض، 1415هـ - 1995م.
- 19- أبو الفضل العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر (ت852هـ)، التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى 1419هـ - 1989م.

- 20- أبو بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، مصنف عبد الرزاق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتبة الإسلامية -- بيروت، الطبعة الثانية، 1403 هـ.
- 21- أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي الكوفي (159-235 هـ)، مُصنّف ابن أبي شيبة، طبعة دار السلفية الهندية.
- 22- أبو جعفر الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي، (224 _ 310 هـ)، تفسير الطبري المسمى (جامع البيان في تأويل القرآن)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420 هـ _ 2000 م.
- 23- أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، دار الكتب العلمية، لبنان _ بيروت، الطبعة الأولى، 1422 هـ _ 2001 م.
- 24- أبو زيد محمد بن أبي خطاب القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، حققه وشرحه: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- 25- أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي (ت388 هـ)، الدكتور عمر محمد حاذق، شرح رسالة بيان إعجاز القرآن ، دار المأمون للتراث، دمشق ، ط1، 1416 هـ _ 1995 م.
- 26- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي، غريب الحديث، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، دار الكتاب العربي _ بيروت، الطبعة الأولى، 1396 هـ مربوطة مع الطبعة المصرية.
- 27- أبو نصر تاج الدين السبكي، عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي _ عبد الفتاح الحلو، الناشر: فيصل عيسى الباي الحلبي، 1383 هـ _ 1964 م.
- 28- أحمد بن محمد بن علي المقرئ الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، ، المكتبة العلمية _ بيروت.
- 29- أحمد بن يحيى البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق عبد الله الطباع وآخرين، مؤسسة المعارف، 1987 م.
- 30- د. أحمد جاب الله شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1984 م.
- 31- أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1377 هـ _ 1958 م.
- 32- الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبدالله (ت430 هـ)، دلائل النبوة، تحقيق: الدكتور محمد رؤاس قلعه جي، وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط2، 1406 هـ _ 1986 م.
- 33- الدكتور أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، المملكة السعودية، ط8، 1430 هـ _ 2009 م.
- 34- الألباني، محمد ناصر الدين ، السلسلة الضعيفة، مكتبة المعارف، الرياض.
- 35- الإمام أحمد بن محمد حنبل (ت 241 هـ)، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرين، إشراف الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421 هـ _ 2001 م، ط2، 1420 هـ _ 1999 م.
- 36- أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، الموسوعة الإسلامية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان.
- 37- أ.د. أيمن محمود مهدي محمد، وجوه الإعجاز في السنة النبوية المطهرة، مجلو كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، المجلد السادس من العدد الخامس والثلاثين.
- 38- الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب ، إعجاز القرآن، تحقيق السيد أحمد صقر، مصر، دار المعارف.

- 39- البخاري، أبو عبد الله بن اسماعيل الجعفي (ت 256 هـ)، صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر) تحقيق: دار السلام، الرياض، ط2، 1419 هـ_1999 م.
- 40- البغدادي، عبد القادر بن عمر (ت1093هـ)، خزنة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: محمد نبيل طريفي، وإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998 م.
- 41- البغوي، للإمام الحسين بن مسعود، شرح السنة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط _ محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق_ بيروت، الطبعة الثانية، 1403 هـ _ 1983 م.
- 42- الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة أبو عيسى (ت279هـ)، الثمائل العجبية والخصائل المصطفوية، تحقيق: سيد عباس الجلمي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1412 هـ.
- 43- تفاحة بعطوط، معايير الفصاحة عند القاضي عبد الجبار وعبد القاهر الجرجاني، دراسة مقارنة، (رسالة ماجستير)، كلية الآداب واللغات، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة العربي بن مهدي، أم البواقي، الجزائر، 2015-2016 م.
- 44- الجاحظ، لأبي عثمان عمرو بن بحر ، البيان والتبيين، تحقيق: المحامي فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، الطبعة الأولى، 1968 م.
- 45- الجرجاني، عبدالله بن عدي بن عبدالله بن محمد أبو أحمد (ت365هـ)، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ - 1988 م.
- 46- الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية _ بيروت، 1399 هـ _ 1979 م.
- 47- الجُمحي، محمد بن سلام (139_231هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر دار المدني بجدة، 1980 م.
- 48- الجوهري، اسماعيل بن حماد (ت393هـ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، ط3، 1984 م.
- 49- أ.د. حسام سعيد النعيمي، فقه اللغة العربية في ضوء الدرس اللغوي الحديث، دراسة منهجية، رئاسة جامعة الفلوجة، مركز التعليم المستمر، مطبعة أنوار دجلة بغداد، ط1، 1438 هـ-2017 م.
- 50- حديث الرسول _ صلى الله عليه و سلم_: (أنا أفصح العرب بيد أني من قريش): سنده وروايته ورأي العلماء فيه _ دلالاته، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الكوفة كلية الآداب، المجلد 2013، العدد 18، (30 سبتمبر/أيلول 2013).
- 51- الحريري، القاسم بن علي (446هـ_516هـ)، درة الغواص في أوهام الخواص، تحقيق عرفات مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1418 هـ-1998 م.
- 52- الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم (ت388هـ)، بيان إعجاز القرآن، ضمن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.
- 53- الحديثي، الدكتورة خديجة ، المدارس النحوية، دار الأمل، أربد، الأردن، الطبعة الثالثة، 2001 م.
- 54- الخطيب التبريزي، محمد بن عبد الله، مشكاة المصابيح، تحقيق : تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي -- بيروت، الطبعة الثالثة، 1405 هـ - 1985 م.
- 55- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق الشيخ بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1419 هـ_ 1998 م.

- 56- الرفاعي، مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتب العلمية، بيروت -- لبنان، ط1، 1421هـ-2000م.
- 57- الزبيدي، للسيد محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس، طبعة الكويت، ط2.
- 58- الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله (ت794هـ)، البحر المحيط في أصول الفقه، تحقيق: د. محمد محمد تامر، دار الكتب العلمية، لبنان_ بيروت، 1421 هـ _ 2000م.
- 59- الزركشي، محمد بن عبد الله بن بهادر، اللآلي المنثورة في الأحاديث المشهورة، تحقيق: محمد بن لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي.
- 60- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت538هـ)، ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، تحقيق: عبد الأمير مهنا، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ-1992م.
- 61- الزمخشري، محمود بن عمر، علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، الفائق في غريب الحديث، دار المعرفة _ لبنان، الطبعة الثانية.
- 62- السهيلي، أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (ت581هـ)، الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، مؤسسة نبع الفكر العربي للطباعة.
- 63- السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن ، الاتقان في علوم القرآن، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط4، 1398هـ.
- 64- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن (ت911هـ)، جامع الأحاديث (الجامع الصغير وزوائده والجامع الكبير)، جمع وترتيب: عباس أحمد صقر وأحمد عبدالجواد، إشراف مكتب البحوث والدراسات في دار الفكر، بيروت-لبنان، 1994م-1414هـ.
- 65- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن، الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير، دار الكتب العلمية _ بيروت، الطبعة السادسة، 2012م.
- 66- السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة، تحقيق: علي محمد البجاوي وآخرين، القاهرة (د.ت).
- 67- الشافعي محمد بن إدريس (ت204هـ)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان.
- 68- شمس الدين السخاوي أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد (ت902هـ)، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، تحقيق: محمد عثمان الخشت، دار الكتاب العربي -- بيروت، الطبعة الأولى، 1405 هـ - 1985م.
- 69- شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق : مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت -- لبنان، الطبعة : الأولى، 1424 هـ - 2004م.
- 70- صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، دار الوفاء، مصر، ط 21، 1431هـ _ 2010م.
- 71- الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، المعجم الأوسط للطبراني (معجم الطبراني الأوسط)، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد أبو معاذ _ محسن الحسيني، دار الحرمين، 1415 هـ - 1995م.
- 72- عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م.
- 73- عبدالقاهر الجرجاني (ت471 أو 474هـ)، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط5، 2004م.

- 74- علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي البرهان فوري (ت975هـ)، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكرى حيانى، صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، الطبعة الخامسة، 1401هـ/1981م.
- 75- الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان، الحروف، تحقيق توفيق الحمد، بيروت، دار الأمل، ط1، 1404هـ.
- 76- الفراهيدي، الخليل بن أحمد، أبو عبد الرحمن، العين، تحقيق: د.مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بغداد.
- 77- المبرد، محمد بن يزيد، الفاضل، تحقيق عبدالعزيز الميمني، القاهرة، دار الكتب المصرية، 1956م.
- 78- د. محمد جابر الفياض، مفهوم الفصاحة، مجلة المجمع العلمي العراقي، الجزء الثالث، المجلد الخامس والثلاثون، شوال 1404هـ- تموز 1984م.
- 79- د. محمد رؤاس قلعه جي، لغة القرآن، لغة العرب المختارة، جامعة الملك سعود، دار النفائس، 1406هـ.
- 80- د. محمد متولي منصور، بلوغ الأرب في لهجات العرب، مطبعة الجريسي، ط1، 2005 م.
- 81- محمد بن سعد بن مَنيع أبو عبدالله البصري الزهري (168_230هـ)، الطبقات الكبرى، دار صادر _ بيروت.
- 82- محمد بن سلامة بن جعفر أبو عبد الله القضاعي، مسند الشهاب، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة -- بيروت، الطبعة الثانية، 1407هـ - 1986م
- 83- محمد عبد العظيم الزرقاني (ت1367هـ)، مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة الثالثة.
- 84- محمد كريم الكواز، الفصاحة في العربية، المفاهيم والأصول، الانتشار العربي، بيروت- لبنان، ط1، 2006م.
- 85- مختار الغوث، لغة القرآن، دار المعارج الدولية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1418هـ _ 1997م.
- 86- مسائل نافع بن الأزرق عن عبدالله بن العباس، تحقيق: الدكتور محمد أحمد الدالي، الجفان والجابي للطباعة والنشر، ط1، 1413هـ_1993م.
- 87- مسلم بن حجاج القشيري (ت 261 هـ)، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د. ت).
- 88- المعجم الوسيط _ مجمع اللغة العربية بالقاهرة _ صدر: 1379هـ-1960م.
- 89- مقدمتان في علوم القرآن، وهما مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية، آرثر جفري، مكتبة الخانجي مصر، ومكتبة المثني ببغداد، 1954م، مطبعة السنة المحمدية.
- 90- الملا علي القاري، نور الدين علي بن محمد بن سلطان، (ت 1014هـ)، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة المعروف بالموضوعات الكبرى، تحقيق محمد الصباغ، دار الأمانة، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1391هـ - 1971م.
- 91- المؤرخ العلامة جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية 1413هـ _ 1993م.
- 92- أ. د.مهدي رزق الله أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، شركة الرشد العالمية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط4، 1433هـ_2012م.

- 93- النيسابوري، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني المعروف بابن البيع (ت405هـ)، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية _ بيروت، الطبعة الأولى، 1411هـ _ 1990م، مع الكتاب تعليقات الذهبي في التلخيص.
- 94- اليحصبي، أبو الفضل عياض بن موسى (ت544هـ)، الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى، دار ابن حزم، بيروت-لبنان، الطبعة الأولى، 1423هـ-2002م.